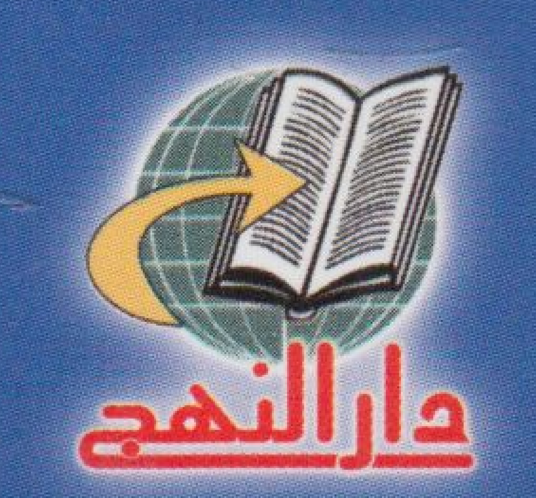
خالد بن الوليد

سيف الله



هيثم جمعه هلال



خالد بن الوليد

سيف الله المسلول

العنوان: خالد بن الوليد

المؤلف: هيثم جمعة هلال

الصف التصويري: Splash For designing & typing services 095894350



للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م - ١٤٢٨ هـ

حلب : الجميلية ـ شارع البحتري ـ بناء الجمعية الخيرية الإسلامية
هاتف : ٠٠٩٦٣/٢١/٢١٢٧٦٧٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٣/٢١/٢١٢٧٦٧٦٦
٠٠٩٦٣/٩٣/ ٣٣٢٦٧٥

خالد بن الوليد

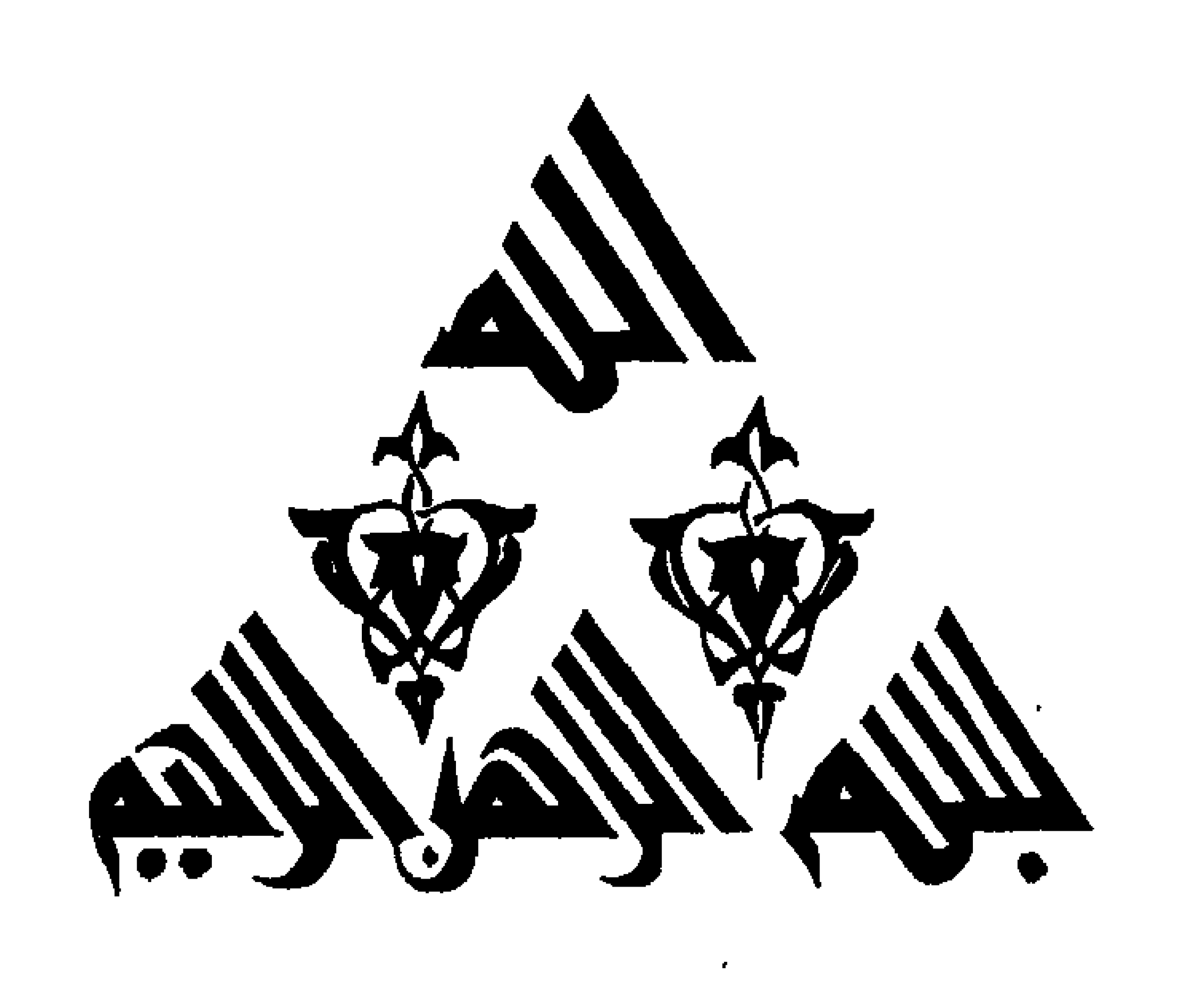
سيف الله المسلول



هيثم جمعة هلال



دار النهج


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

نسبه وأسرته

العرب وأرضهم

تعد «جزيرة العرب» كما يسميها العرب المسلمون أوسع شبه جزيرة في العالم، ويَبْلُغُ مجموع مساحتها حوالي مليون ميل مربع، أي ما يساوي حوالي مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع، فيبلغ طولها ألفاً ومئتي ميل على ساحل البحر الأحمر، وأقصى عرضها ما بين اليمن وعمان ألف وثلاث مئة ميل[1].

ويحدها غرباً البحر الأحمر، وخليج عدن وبحر العرب جنوباً، ومن الشرق خليج عُمان والخليج العربي، وكذلك من الشمال الشرقي، ويحدها شمالاً العراق والأردن، وهي ترتبط بإفريقية بطريق شبه «سَيْنَاء»، وكذلك فإنها تتصل بها عبر البحر الأحمر. وأما اتصالها بآسيا فطريق البحر مفتوح أمامها[2].

ومن جهة أخرى فهي تضم المملكة السعودية بما فيها الحجاز ونجد وعسير والأحساء، واليمن وحضر موت وعمان ومشيخات عمان والكويت وقطر والبحرين، كما تعد جزيرة «سوقطرة» جزءاً منها لارتباطها بها سياسياً وعرقياً، بالرغم من أنها تبعد من الساحل الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب مئتين وعشرين ميلاً[3].

وغالب أراضي شبه جزيرة العرب صحار وسهول تتخللها واحات، وأراضيها خصبة في الواقع؛ وتقسم الأراضي الصحراوية إلى قسمين: أولهما بركاني؛ وهو ما يدعى بالحِرار (جمع «حَرَّة») ؛ وهي تكثر في الأقسام الغربية من الجزيرة، وتمتد حتى تصل بحرار بلاد الشام من

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، لأحمد سوسة ، ط (٤) ، دمشق، ١٩٧٥م : ١٨٢.

(٢) السابق: نفسه.

(٣) السابق: ١٨٢ ـ ١٨٣.

منطقة «حوران»، كما أن «الحرار» متوفرة في المناطق الوسطى من شبه الجزيرة، وفي المناطق الجنوبية الشرقية من «نجد»، وفي المناطق الجنوبية الغربية قرب «باب المندب» وعند «عدن».

والقسم الثاني هو ما يدعى «بالدهناء» التي تتألف من مساحات شاسعة من الأراضي الرملية الممتدة من «الجوف» شمالاً إلى «حضرموت» و«مَهَرَةَ» جنوباً، وإلى اليمن من الغرب وإلى عمان من الشرق، وفيها كثبان من الرمال على ارتفاعات مختلفة تنتقل غالباً مع الرياح، وفي هذه الأراضي مياه جوفية يمكن التنقيب فيها لاستخراج المياه منها من الآبار.

وتسقط في بعض مناطق هذا القسم الأمطار الموسمية فتزدهر الأرض في الربيع ثم تصبح بلقعاً، وهذه المنطقة تكثر فيها العواصف الرملية وتشتد حدة الحرارة صيفاً. ويعرف القسم الجنوبي من الدهناء عند الجغرافيين العصريين باسم «الربع الخالي»، وكانت تعرف بمفازة صيهد[١].

وتقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي منطقة رملية واسعة تدعى منطقة «الأحقاف» التي اقترن اسمها في التاريخ القديم بقوم «عاد»، كما أن ثمة منطقة كانت قبل أيام الجاهلية عامرة خصبة؛ وهي «الوبارين»، وهي من أراضي «الدهناء» ما بين «حضرموت» و«نجران»، إلا أن تغير أجواء الجزيرة قضى على عمرانها، وظلت آثاره ماثلة في الجاهلية[٢].

وأيضاً ثمة مناطق يطلق عليها اسم «النفود» ؛ «وهي مناطق رملية واسعة، ذات كثبان مرتفعة وسلاسل رملية متموجة، كانت تعرف باسم «الدهناء»، ثم غلب عليها اسم «النفود»، وهناك منطقتان مشهورتان من مناطق النفود هما صحراء النفود الكبرى في الشمال، تقع بين جوف وتيماء وصحراء الدهناء (النفوذ الكبرى) بين الأحساء والرياض»[٣].

وأيضاً في شبه الجزيرة ثمة أودية عديدة تخترق أرضيها، تنبع من المرتفعات الجبلية، فتجري فيها السيول أثناء مواسم المطر، وتفيض مياهاً على الرمال حيث تتكون بعض الواحات المزدَرَعة؛ وأكبر هذه الأودية: وادي الحمض، والرمة، والدواسر، ووادي حنيفة[٤].

وفي جو قائظ حار عاش أهل الجزيرة أيامهم، وفي أشعارهم وأقوالهم التي وصلتنا نجد

---

(١) السابق: ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٢) السابق: ١٨٤ .
(٣) السابق: ١٨٥ .
(٤) السابق: نفسه .

طراز حياتهم بأدق التفاصيل وأوفاها، كما صور لنا خلجات نفوسهم ومشاعرهم، وصحراءهم وكائناتها، وحيواتهم المختلفة من تشرذم وسفر وترحال وصعلكة وموت وفناء، وعباداتهم، والنساء والملاذ والشهوات، والحكمة العملية، وكل ما يخطر على البال من أفكار وخرافات ومناسك وحروب وأراض وزرع وحيوان وترحل وانتقال.

وكانت القبائل العربية تعيش في حياة ترحال في الأعم الغالب، وتتكون القبيلة من سيدها، وكل قبيلة تنقسم إلى بطون وأفخاذ، وتعد القبيلة في ذلك الزمان بمثابة الدولة في أيامنا هذه، فلكل قبيلة جيش وقادة وسيد، وهي تخوض الحروب التي مبناها ومعناها قائم على العصبية الجاهلية، وعلى فكرة الأخذ بالثأر، وتحرك الحروب أسباب قد تصل إلى أدنى التفاهات، وما ذلك إلا لضيق أفق الناس وفكرهم الضيق الذي يستمد من الواقع المحيط بهم.

قبيلة خالد

ومن بين قبائل العرب العدنانية كانت قبيلة خزيمة وكنانة؛ وانحدرت قريش من كنانة، وكانت قريش في«مكة»التي تقع وسط العالم البري، والتي تحتل مركز الصدارة لدى العرب بشرف «البيت العتيق» الذي كان فيها،وقد ازدهرت مكة تجارياً لموقعها الجغرافي الهام على الطرق التجارية القديمة بين اليمن وبلاد الشام[1].

ومن بين بطون قريش وعشائرها كانت قبيلة خالد قبيلة بني مخزوم بن يَقَظَةَ؛ ومخزوم هو ابن يقظة بن مُرَّةَ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وأمه كلبة بنت عامر بن لؤي بن غالب بن فِهْر، وأولاده من غني بنت يسار بن نزار بن مَعِيص بن عامر بن لؤي هما: عمر وعامر، وأما من سُعدى بنت وهب بن تيم بن غالب بن فهر فهما: عمران وعَمِيرة[2].

وقد وَلَدَ عُمَرُ عبد الله وعبيداً وعبد العزى من برة بنت قُصي بن كلاب، وولد عبد الله بن عمر بن المغيرة الذي في ولده العدد والشرف والبيت، وعثمان، وعائذاً، وخالداً، وأسد بن جُندَب، وقيساً من رَيْطَة بنت عمرو بن كعب، وهلال بن عبد الله من بَرَّةَ بنت ساعدة ابن مشنق بن عبد بن حَبْتَر من «خُزاعة»[3].

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لأحمد ارحيم هبو، ط(٢) ، حلب ـ مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٨٠ـ ١٩٨١م: ٢٢٤.

(٢) نسب قريش، للمصعب الزبيري ، تحقيق ليفي برو فنسال، ط (٢) ، القاهرة ـ دار المعارف: ٢٩٩.

(٣) السابق: نفسه.

وأما المغيرة بن عبد الله فولَدَ هاشماً، وهشاماً، وأبا حذيفة مُهَشِّماً، وأبا ربيعة «ذا الرمحين» عمراً، وأبا أمية «زاد الراكب» حذيفة، وخِدَاشاً، وزهيراً، وأبازهير تميماً، والفاكه، كلهم من ريطة بنت سعيد بن سهم بن عمرو، والوليد بن المغيرة الذي سمي «الوحيد» ، وعبد شمس من صخرة بنت الحارث بن عبد الله بن عبد شمس، وحفص بن المغيرة، ـ وأمه من بني الأحمر ابن الحارث بن عبد مناف بن كنانة ـ وعثمان بن المغيرة[١].

واشتهر من بني هشام بن المغيرة الحارث بن هشام الذي أسلم يوم الفتح[٢]، وأخوه عمرو بن هشام أبو جهل[٣] لعنه الله فرعون هذه الأمة.

ومن ولد أبي جهل عكرمة[٤] قتل يوم «أجنادين» شهيداً، ومن ولد أبي أمية بن المغيرة اشتهر عبد الله بن أبي أمية الذي كان شديد الخلاف على المسلمين، ثم لما هاجر إلى النبي ﷺ ولقيه بين السُّقْيا والعَرْج في موضع «الصَّلوب» أعرض عنه ﷺ حتى شفعت له أم سلمة بنت أبي أمية زوجُ النبي ﷺ ، وكان أخاها لأبيها، فقبل الرسول ﷺ شفاعتها، وقد شهد فتح مكة وحنيناً وقتل يوم الطائف مسلماً[٥].

ومن أولاد الفاكه المغيرة أبو قيس الذي قتل يوم بدر كافراً، ومن ولد عبد الله بن المغيرة عثمان الذي أسر يوم بدر كافراً، ونوفل الذي قتل يوم الخندق على كفره، وكان ممن عبر الخندق مع عمرو بن ود في نفر من قريش[٦].

وهكذا فإن ما ذكرناه يبرز مكانة قبيلة خالد ورجالاتها الذين منهم وجوه في قريش وسادة كبار يشار إليهم بالبنان، فضلاً عما كان لأسرة خالد نفسها من زعامة وسيادة في قريش.

أسرة خالد

وأما والد خالد الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فهو كما ذكرنا يدعى «الوحيد»؛ وقد جاء فيه قوله عز وجل: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً

---

(١) السابق: ٢٩٩ـ ٣٠١.
(٢) السابق: ٣٠٢.
(٣) السابق : نفسه.
(٤) السابق: ٣١٠.
(٥) السابق:٣١٥ـ٣١٦ .
(٦) السابق : ٣١٧.

* وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:١١ـ٢٦]؛ فقد كان هذا الرجل قد سمع كلام النبي ﷺ، وسمع كلام الله فقال فيه: «لقد نظرت في هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنه ليعلو وما يُعلى، وما أشك أنه سحر»[1].

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس «أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سِنٍّ فيهم ـ وقد حَضَرَ الموسمُ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضَكم بعضاً، فقالوا: أنت فَقُلْ، وأَتِمَّ لنا به رأياً نقول به، قال: لا، بل أنتم قولوا لِأَسمعَ.

قالوا: نقول: كاهن، قال: ماهو بكاهن؛ لقد رأينا الكهانَ، فما هو بزَمْزَمَةِ الكهان ولا بسَجعِهم، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون؛ لقد رأينا المجْنُونَ وعَرَفناه، فما هو بِخَنْقِهِ ولا تَخَالُجِهِ ولا وسوسته، قالوا : فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَهُ وهَزَجَهُ وقريضَهُ ومقبوضَهُ ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحرٍ؛ لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهِ ولا بعقْده، قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لَعِذْق، وإن فرعه لَجَنَاةٌ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر يُفَرِّقُ بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فأنزل الله في الوليد؛ وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ٢٦] ...»[2].

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ط(٢)، دار الفكر، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م: ج ٨ ، تفسير آيات (١١- ٣٧) من سورة المدثر.
(٢) السابق : نفسه.

وقد كانت أم خالد بن الوليد رضي الله عنها يقال لها: لُبَابةُ الكبرى أو الصغرى؛ وهي عصماء بنت الحارث بن حَزْم بن بُجَير بن الهُزَم، وهو ابن خالة عبد الله بن العباس[1].

وأخو خالد عُمارة بن الوليد«كان من فتيان قريش جَمَالاً وشعراً، وهو الذي بعثته قريش مع عمرو بن العاصي إلى النجاشي، يكلِّمانه فيمن قدم عليه من المهاجرين، فلما يئس عمرو مَحَلَ بِعُمارة عند النجاشي، فنفخ النجاشي في إحليله سِحراً، فذهب مع الوحش فيما تقول قريش، فلم يَزَل مستوحشاً يَريدُ الماء في جزيرة بأرض الحبشة حتى خرج إليه عبد الله بن أبي ربيعة في جماعة، فَرَصَدَهُ على الماء، فأخَذَهُ، فجعل يصيح: «يابُجيرُ، أَرسِلني؛ فإني أموتُ إن أمسكتني» فأمسكه، فمات في يده»[2]. ولعمارة هذا أشعار كثيرة تروى.

ومن إخوة خالد أبو قيس بن الوليد الذي قتل بمكة كافراً، وفاطمة بنت الوليد التي تزوجت الحارث بن هشام المخزومي فولدت له عبد الرحمن وأمَّ حكيم، وفاطمة وأبو قيس أمهم حَنْتَمةُ بنت شيطان بن عمرو بن كعب بن وائلة بن الأحمر بن الحارث بن عبد مناة[3].

ومن إخوته أيضاً عبد شمس بن الوليد بن المغيرة، وبه كان يُكنَى الوليد، وهذا أمه بنت هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[4].

ومن إخوته هشام بن الوليد الذي قتل أبا أُزَيهر الدوسيَّ في قصة بسوق «ذي المَجَاز»، وكادت تنشب بهذا حرب بين قريش بعضهم ببعض بعد البعثة النبوية لولا أن تدارك أبو سفيان الأمر[5].

ومن إخوته الوليد بن الوليد الذي أُسر يوم بدر، فلما افتدى نفسه أسلم، فقيل له: «هلا أسلمت قبل أن تفتدي وأنت من المسلمين؟» ، قال: «كرهت أن تظنوا أني جزعت من الإسار...» ، فحبوه بمكة، فكان رسول الله ﷺ يدعو له[6].

وأمُّ الوليد وهشام ابني المغيرة هي أميمة ـ وقيل: عاتكة ـ بنت حَرْمَلَةَ بن عُريج بن شَقِّ

---

(١) نسب قريش للزبيري: ٣٢٢.
(٢) السابق : نفسه. ومَحَلَ به: إذا كاد له كيداً.
(٣) السابق : نفسه.
(٤) السابق : نفسه.
(٥) السابق:٣٢٣. وانظر البداية والنهاية ، لابن كثير: ج ٣، قصة مصارعة رُكانة...
(٦) نسب قريش للزبيري: ٣٢٣- ٣٢٤ .

ابن صَعب بن علي قَسْر. وقد أُفْلِتَ الوليد من الأسر لاحقاً برسول الله ﷺ، وشهد معه «عمرة القضية»، وكتب إلى أخيه خالد الذي كان قد خرج من مكة فراراً أن يرى رسول الله ﷺ وأصحابه كراهة منه للإسلام وأهله، فسأل النبي ﷺ الوليد عن خالد وقال: «لو أتانا لأكرمناه، ومامِثْلُهُ سقط عليه الإسلام في عقله»، فكتب ذلك الوليد إلى أخيه خالد الذي وقع في صدره الإسلام، فهاجر كما سنصف إن شاء الله[١].

وفي هذه البيئة ولد خالد بن الوليد، وإذا كانت وفاته سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين للهجرة على خلاف في هذا، فإن الذي ذكره «الذهبي» أنه مات عن ستين سنة[٢]، فهذا يعني أنه ولد سنة / ٣٨ق.هـ/ أو / ٣٩ق. هـ/.

وتجدر الإشارة إلى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٧٨] قد نزلت في بني المغيرة من بني مخزوم الذين كانوا يُرْبُونَ لثقيف، وكان الوليد له على ثقيف فضل ربا حين مات؛ وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن الوليد لما حضره الموت أوصى بنيه بوصاةٍ؛ فكان في جملة ما أوصاهم ألا يَدَعُوا رباه في ثقيف، ولما أسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه وشهد الطائف مع النبي ﷺ سأله في ربا أبيه من أهل الطائف، فنزلت هذه الآيات من سورة البقرة، وهي تحدد أن لهم رؤوس أموالهم فحسب دون أموال الربا[٣].

وأيضاً كانت لخالد بن الوليد خيمة تدعى «القبة» ؛ وهي لها مكانة في قريش إلى جانب المهام الأخرى كالأيسار والديات واللواء والقيادة والسفارة والحجابة والسقاية والرِّفادة ودار الندوة، وكلها مهام للحكم ونظام سياسي في ذلك الحين لمجتمع مكة؛ وتعني «القبة» الخيمة التي «كانوا إذا خرجوا إلى الحرب ضَرَبوها وجمعوا فيها ما يجهزون به جيشهم، وكانت لخالد ابن الوليد من بني مخزوم بن مرة»[٤].

ومما يوضح أمر أسرته ما روي أن عثمان بن عفان مر بمجلس لبني مخزوم وهو خليفة

---

(١) نسب قريش للزبيري: ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية: ٢/ ١٦٠٤. وانظر الوافي بالوفيات، للصفدي، محمد الحجيري، بيروت ـ دار صادر (بنفقة الجمعية الألمانية للبحث العلمي) : ١٣/ ٢٦٨.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٣، قصة مصارعة ركانة...

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٢٩.

رضي الله عنه، فوقف مسلِّماً، ثم قال: «إنه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم»، فقال له بعضهم: «أفلا تُزَوِّجُ بعضَنا يا أمير المؤمنين؟» فنظر عثمان إلى رجل بينهم هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فقال: «إن شاء ذاك ـ وأشار إلى عبد الرحمن هذا ـ زَوَّجتُهُ» ، قال عبد الرحمن: «فإني أشاء»، فزوجه عثمان مريم ابنته رضي الله عنهم جميعاً[١].

ذرية خالد بن الوليد

من أولاد خالد عبد الرحمن الذي كان عظيم القدر في أهل الشام، وشهد مع معاوية معركة «صِفِّين»، وكان كعب بن جُعيل الشاعر كثير المديح له، ثم رثاه بعد موته[٢].

ومن أولاده المهاجر بن خالد، وعبد الله الذي قتل بالعراق، وأمهم بنت أنس بن مُدرِك الخثعمي، وكذلك سليمان بن خالد الذي كان يكنى به خالد؛ وأمه كبشة بنت هَوذَةَ بن أبيِّ عمرو من وَلَد رَزَاح بن ربيعة، وأيضاً له ولد اسمه عبد الله؛ وهذا الولد أمه أم تميم الثقفية[٣].

وولد للمهاجر خالدٌ من مريم بنت لجَأ بن عوف بن خارجة بن سنان؛ وخالد بن المهاجر هذا هو الذي اتهم معاوية بأن يكون دس الطبيب «ابن أُثال» إلى عمه عبد الرحمن؛ حيث سقاه السم في دواء وصفه له فشربه فمات، فاعترض المهاجر ابن أثال فقتله بعمه، وظل مخالفاً لبني أمية، وكان شاعراً جيد الشعر[٤]. وانقرض ولد خالد فلم يبق منهم أحد[٥]. وكانت وفاة خالد هذا في حدود المئة [٦].

النشأة العسكرية لخالد بن الوليد

لا نستطيع أن نجد تفاصيل دقيقة عن حياة خالد ونشأته كما يتوقع عن أمثاله في كتب التراجم والسير، على أننا نستطيع أن نخلص إلى صورة إجمالية؛ مفادها أنه كان رجلاً عادياً في حياته الخاصة والعامة؛ فقد نشأ نشأة البادية، وغُذي بِلِبَانها، وترعرع في كنف أشجارها وفي واحاتها في مكة، فكان عسكرياً محارباً جلداً؛ ثم نستطيع أن نستنبط أنه قد برزت مواهبه

(١) نسب قريش للزبيري: ٣٠٨.
(٢) نسب قريش: ٣٢٤ – ٣٢٥.
(٣) السابق : ٣٢٧.
(٤) السابق : ٣٢٧
(٥) السابق : ٣٢٨.
(٦) الوافي بالوفيات:١٣/ ٣٦٩.

العسكرية الفذة، فتسلم قيادة الفرسان في معركة أحد كما سنصف في موضعه لا حقاً إن شاء الله.

ولو تصورنا الحياة في ذلك الزمان فإننا سنجد أن الحرب هي الطاغية على مساحات هذه الصحراء، وهي تستلزم دوماً إعداداً للفتيان من القبائل؛ إذ تحرص كل قبيلة على أن يخرج فتيانها مدربين مجهزين على القتال وعلى الكر والفر، ولا تدخر في ذلك وسعاً بما فيها قريش التي لم تجرؤ القبائل على الاعتداء عليها، فهي ذات بأس وشكيمة تمثلا في محاربيها الأشداء .

وبالرغم من أن ظاهر الأمور تجعل بعض الناس يظنون أن العرب في الجاهلية لم يكونوا ذوي مهارة وكفاية في الحروب، وأنهم لاينتجون الخطط الحربية، وما شاكل ذلك من الكلام الذي يراد به التقليل من شأن العرب في الجاهلية، فإننا نهيب بهؤلاء الذين يظنون هذا الظن ألا يسرعوا في الحكم، وأن يتدارسوا الأمر بأناة وروية.

فالمدقق في المرويات لا يمكنه أن يزعم هذه المزاعم، بل إن معارك العرب ووقائعهم تدعونا إلى استبعاد عدم إلمام العرب بالحروب، بل تفيد أنهم كانوا أهل حرب وقتال وجلد وأنهم كانوا يحسنون الكر والفر، والقتل والقتال، ويظهرون مرونة شديدة لا يمكن لأمة أخرى أن تحاربهم فيها ذلك العصر، وما معركة «ذي قار» إلا مثال على هذا الذي نقول، وكذلك فإن التواريخ تسجل لنا طائفة من الأحداث التي لا تدع المجال لمثل هذه المزاعم[1].

يقول «العقاد»: «فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن إلا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقِسِيِّ والمقاليع، لا ترجع إلى نظام، ولا تَنهَجُ على خطة، ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم، ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقِوام أمرها شراذم من السُّطاة والمغيرين سرعان ما تُقبِلُ حتى تُدبر، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكرِّ أو تكر بعد الفرِّ. وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها في اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة»[2] .

ويدافع العقاد عن فكرته، ثم يدرس معركة «ذي قار»، وبالرغم من ذلك فإنه يذكر بعض الأمور التي تخفف من أثر دفاعه حول العرب لا نراها هي الوجه الذي يمكن أن يكون

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع كتابنا «موسوعة حروب ومعارك العرب في الجاهلية»، وكتابنا الآخر «موسوعة الحروب» ففيهما مَقْنَعٌ وكفاية إن شاء الله.

(٢) ..عبقرية خالد، لعباس محمود العقاد، بيروت ـ المكتبة العصرية، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م: ١٦ ـ ١٧.

الكلام منصباً عليه[١].

ويحصي العقاد وجوه التدبير عند العرب فيرى أنهم كانوا يتأهبون للاستطلاع ويرسمون الخطط، وينظمون الجيش في مواقفه، وفي حركاته، ثم يُذْكون العزيمة في نفوس أفراده، ويقومون بإضعاف العزيمة في نفوس خصومه[٢]. وهذا هو لباب المعركة الحديثة وجوهرها.

إلا أن ما فات المدققين والمؤرخين العصريين في شأن الحروب والمعارك، هو دراسة شاملة ومفصلة للروايات الواردة في شأنها، والتي تجعل المرء يفهم كيفية تخطيط الحرب وتنظيم الجيش، والواقع أن هذه الروايات تشير إلى براعة مدهشة وحُنكة في ترتيب صفوف القتال، فالمقاتلون بالسيف وحملة الرماح هم في سَرَعان[٣] الجيش على الدوام، والصفوف قد تتقدم وقد تتأخر فيها، ثم نجد ميمنة الجيش وميسرته في عمليات ترتيب بحسب الحالة، بينما نجد حملة الحراب والسهام هم في ساقَةِ[٤] الجيش، ولهم ترتيب معين بحسب طبيعة الأرض، وهكذا تختلف التكتيكات في صفوف الجيش، كما تختلف البداية بحسب الخطط؛ أعني أن بدء الهجوم قد يكون برمي السهام، وربما يكون بالهجوم الملتحم، وفي الهجوم تكون تكتيكات أخرى متغايرة، فضلاً عن عمليات نصب الكمائن، وخطط التطويق المختلفة مما لا غرض لنا هنا في شرحه.

وقد تفتقت ذهنية خالد عن آفاق رحبة لم تعهدها القبائل في الحروب، فاستطاع أن يبتكر الخطط منذ كان في جاهليته، وكان الإسلام هو الحافز والمحرك على تنمية قدراته العقلية لاتخاذ إجراءات سريعة بسرعة بديهة تخطف الأنفاس، مع قدرة على نصب الكمائن وإحكام الطوق على عدوه، ومباغتته غاية المباغتة، وعنصر المفاجأة هذا قد لعب دوراً حاسماً جداً لدى القادة منذ قدم الخليقة.

---

(١) السابق: ٢٠ـ٢١.
(٢) السابق: ٢٠.
(٣) سرعان الجيش: مقدمته وطليعته.
(٤) الساقَةُ: مؤخرة الجيش.

خالد في معركة أحد

كانت معركة أحد بعد«بدر الكبرى»، وكان المسلمون يتوقون إلى مقارعة المشركين بعد أن خضدوا شوكتهم، وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، وكانوا من شباب المسلمين الذين تعتري أمثالهم الحماسة في ظل هذه الظروف وأمثالها، ولم يكن رأي رسول الله ﷺ ونفر معه من الصحابة أن يخرجوا للقاء، بل كان رأيه التحصن في المدينة، ولكن مضى قدر وبقي أسفٌ.

وأخذ النبي ﷺ برأي الأكثرية من شبان المسلمين الذين رأوا بعد أن لبس النبي ﷺ لأمته ودرعه أنهم استكرهوه على الخروج، فلما عرضوا ذلك الذي خالج نفوسهم على النبي ﷺ قال: «ما ينبغي للنبي إذا لَبِسَ لَأمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل»[١]. وكان النبي ﷺ قد خرج بألف رجل حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل بثلثهم عبد الله بن أبي المنافق، وأعطى النبي ﷺ اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار[٢].

وخرج رجل من المشركين يدعو إلى المبارزة يوم أحد، ودعا ثلاثاً حتى قام إليه الزبير بن العوام الذي وثب إليه فصرعه من على بعيره، ثم ذبحه بسيفه. وأمَّر النبيُّ ﷺ على الرماة الذين كانوا خمسين رجلاً موضعهم على الجبل، عبد الله بن جبير من بني عمرو بن عوف قائلاً له: «أَنضِح عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثْبُتْ مكانك لا تؤتَيَنَّ من قِبَلِكَ[٣]». وقال: «إذا رأيتمونا تَخْطَفُنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ واطأناهم فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم»[٤].

والتحم الجمعان وحمي الوطيس، وهزمت قريش، غير أن الرماة الذين كانوا على الجبل لما رأوا الهزيمة في قريش ونساءهم يَشْتَدّونَ على الخيل قد بدت خلاخيلهن وأَسوُقُهُنَّ رافعاتٍ ثيابهن، تنادوا إلى الغنائم، فنزلوا من أماكنهم، ودخلوا إلى العسكر ينتهبون، وكان المشركون قد جعلوا على خيلهم خالد بن الوليد، ومعهم مئة فرس، وليس مع المسلمين فرس، وكان الرماة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط(١)، القاهرة ـ دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٣/ ٢٢٦.

(٢) السابق: ٣/ ٢٢٦ـ٢٢٧. والشوط: اسم مكان.

(٣) السابق: ٣/ ٢٢٧. وأنضح عنا الخيل: ادفعها عنا.

(٤) السابق: ٣/ ٢٢٩.

الذين جعلهم النبي ﷺ على الجبل نحوَ خيل العدو، وهنا كان خالـد قـد اغتـنم فرصةانشـغال الرماة بالغنائم بعد أن بارحوا أماكنهم، فكَرَّ عليهم في أُخراهم وكانت الفوضى، فالتبس الأمر بين المسلمين، وعم القتل، وكانت الدولة للمشركين، وطار الظَّفَرُ من أيدي المسلمين[١].

وذكر ابن إسحاق أن قريشاً تعبأت وعددها ثلاثة آلاف، معهم مئتا فرس؛ فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل[٢]، وهذا مع أن عدَّة من كـان من النبي ﷺ سبعُ مئة رجل بعد انخزال عبد الله بن أبي بثلاث مئة كما أشرنا. ويستفاد ممـا روي أن الخيل كانت في ساقة الجيش، وهذا له دوره في المعركة التي اعتمدت على الالتحام بالسيوف بالدرجة الأولى، وكان الرسول ﷺ يركز على أثر الرماة على الجبل حيث كـان في مقـدورهم أن يصطادوا الفلول وأن يحموا مؤخرة جيش المسلمين الذي كان ظهره إلى الجبل، بينما التف خالد بمن معه على الجبل من وراء الجيش والرماة الـذين لم يكـن في ميسـورهم رصـد مـا يجري في الميدان، فأتتهم الخيل بغتة، ولم يجد الرماة القلائل الذين ظلوا في الجبل فائدة ترجى من مدافعة الخيل الكثيرة، فضلاً عن أن ثمة خيلاً صعدت أعلى الجبل كما تفيد الروايات، وقد قاتلهم عمر ابن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[٣].

خالد وغزوة الحديبية

يروي الواقدي بإسناده عن خالد بن الوليد عن قصة تعرضه للرسـول ﷺ في «عُسْـفَان» حين ذهب إلى المشركين يطلب الحج، وقد اختلف الرواة في هذه المرويات من روايات أخـرى جاءت بغير ما رواه خالد، وفي طريقه إلى القوم نزل بعسفان، وكان خالد على خيل المشركـين؛ قال خالد: «فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيتُ رسـول الله ﷺ في أصحابه بعُسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنـا، فَهَممنـا أن نُغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا، فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهم به، فصـلى بأصـحابه صـلاة الـعصر

(١) السابق: ٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) البداية والنهاية: ج٤، غزوة أحد في شوال سنة ثلاث. والسيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق طه عبد الـرؤوف سـعد، ط(١)، بيروت ـ دار الجيل، ١٤١١هـ: ٤/ ١٣.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٣٥. ودلائل النبوة للبيهقي: ٣/ ٢١٣.

صلاة الخوف»[1].

وقد شهد خالد الحديبية في خيل المشركين، فخرج في وجه رسول الله ﷺ، ولكن النبي ﷺ كان قد تجنبه وقصد طريقاً آخر لغرض عدم الصدام[2].

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٣/ ٣٦٦ـ ٣٦٧.
(٢) البداية والنهاية: ج٤، غزوة الحديبية

الفصل الثاني

خالد والنبي ﷺ

إسلامه

وبعد صدود ونفور أسلم خالد؛ وهاهو رضي الله عنه يحدثنا بقصة إسلامه فيقول: «لما أراد الله عز وجل ما أراد بي من الخير، فقَذَفَ في قلبي الإسلام، وحَضَرَني رُشدي وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمد ﷺ؛ فليس مَوطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا في نفسي أني مُوضِعٌ[1] في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيتُ رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسفان، فقمت بإزائه، وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا، وكانت فيه خيرة، فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاةَ الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً وقلتُ: الرجل ممنوع»[2].

«فافترقنا وعَدَلَ عن سَنَن[3] خيلنا، وأخذتُ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالراح[4] قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المَذهبُ إلى النجاشي، فقد اتبع محمداً، وأصحابه عنده آمنون؟ فأخرج إلى هِرَقْل، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عَجَم، تابعٌ مع عيب ذلك، أو أقيم في داري فيمن بقي»[5].

«فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية، فتغيبت ولم أشهد دخوله، فكان

---

(١) أوضع : من الإيضاع؛ وهو السير بين القوم، ويكون بالدابة. لسان العرب(وضع).

(٢) وبعض من روى هذه القصة كما أشرنا رواها في بني لحيان لا كما رواها خالد رضي الله عنه. وفي صلاة الخوف تختلف الروايات جداً، ويمكن الجمع بينها.

(٣) السَّنَنُ: الطريق. وسنن الخيل: جهتها.

(٤) الراح: جمع راحة؛ وهي الكف.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي:٤/ ٣٤٩ـ ٣٥٠.

أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، وكتب إلي كتاباً؛ فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعَقَلَكَ عَقْلُكَ، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ قد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: ما مثلهُ جَهِل الإسلام، ولو كان جَعَلَ نكايته وجِدَّهُ[مع] المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك - ياأخي - ما فاتَكَ، وقد فاتتك مَوَاطِنُ صالحةٌ» .

«فلما جاءني كتابه نَشَطْتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام، وسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جَدْبَةٍ، فخرجت إلى بلادٍ خضراءَ واسعةٍ، قلت: إن هذه لَرُؤيا. فلما قدمنا المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر، فذكرتها، فقال: هومَخْرَجُكَ الذي هداك الله للإسلام، والضِّيقُ الذي كنت فيه من الشِّرك»

«فلما أجمعتُ الخروجَ إلى رسول الله ﷺ قلتُ: من أُصاحبُ إلى محمد؟ فلقيتُ صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن كأضراسٍ، وقد ظَهَرَ محمدٌ على العرب والعجم، فلو قَدِمنا على محمد فاتبعناه؛ فإن شرفَ محمدٍ لنا شرفٌ، فأبى أشدَّ الإباء وقال لي: لو لم يبقَ غيري ما اتبعته أبداً، فافترقنا وقلت: هذا رجل قُتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيتُ عِكرِمَةَ بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مِثْلَ ما قال صفوانُ، قلت: فاكتم ذكر ما قلتُ لك، قال: لا أذكره».

«فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي تُخرَجُ إلى أن ألقى عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديقٌ، فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرتُ من قُتل من آبائه فكرهت أن أذكره، فقلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي؟ فذكرت له ما صار الأمرُ إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحْرٍ لو صُبَّ فيه ذَنُوبٌ[1] من ماء خَرَجَ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي، فأسرع الإجابة وقال: إني غدوتُ اليوم وأنا أريد أن أغدوَ، وهذه راحلتي بفَخٍّ مُناخَةً، قال: فاتَّعَدتُ أنا وهو بيأجَجَ[2]؛ إن سبقني أقام، وإن سبقته أقمتُ عليه».

---

(١) الذنوب: الدلو العظيمة.

(٢) فخ ويأجج:اسم مكانين. وفخ: واد بمكة.

«قال: فأَدلَجنا سَحَرَ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بِيَأجَجَ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدْأَة[1]، فنجد عمر بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبِكَ، قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجَكَ؟ فقال: ما أخرجَكُمْ؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباعُ محمد، قال: وذاك الذي أقدمني »[2].

وهنا نتوقف مع كل ما قال عمرو بن العاص الذي رجع من عند النجاشي وقد بايعه على الإسلام بعد أن نصح له النجاشي بلزوم دعوة الحق، يقول عمرو بعد ذكره لقصة النجاشي ورجوعه من عنده على هذه الصفة التي ذكرنا، ثم وصوله عبر البحر إلى ميناء«الشعيبة» الذي على شاطىء اليمن، ثم اتباعه بعيراً يريد به المدينة، فخرج على «مَرِّ الظهران».

يقول: «ثم مضيتُ حتى إذا كنتُ بالهَدْأة فإذا رجلانِ قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلاً، وأحدهما داخل خيمة، والآخر قائم يمسكُ الراحلتين، نظرت فإذا خالد ابن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم،قلت: أين تريد؟ قال: محمداً ﷺ ، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طَعَمٌ، والله لو أقمت لأخَذَ برقابنا كما يُؤْخَذُ برقبة الضَّبُعِ في مَغَارتها».

«قلت: وأنا ـ والله ـ قد أردتُ محمداً ﷺ ، وأردت الإسلام. فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي، فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم رافقنا حتى قدمنا المدينة، فما أنسى قول رجل لقينا ببئر أبي عِنَبَةَ يصيح: يا رَبَاحُ، يا رَبَاحُ، فتفاءلنا بقوله، وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعُهُ يقول: قد أعطَتْ مكةُ المَقَادةَ بعد هذين، فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننتُ أنه بَشَّرَ رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان ما ظننتُ»[3].

ونتابع من ثم رواية خالد حيث قال: «فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة، فأنخنا بظهر الحَرَّةِ رِكَابنا، فَأُخْبِرَ بنا رسول الله ﷺ فَسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عَمَدْتُ إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي فقال: أسرع؛ فإن رسول الله ﷺ قد أُخبِرَ بك فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطلعتُ عليه فما زال يبتسم إلي حتى وقفت عليه، فسلمتُ عليه بالنبوة، فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله

---

(١) الهدأة: موضع بين مكة والطائف. لسان العرب (هدأ).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي: ٤/ ٣٥٠ـ٣٥١.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي: ٤/ ٣٤٥ـ٣٤٦.

ﷺ : الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لكَ عقلاً رجوت ألا يُسْلِمَكَ إلا إلى خير، قلت: يا رسول الله، قد رأيتُ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليكَ معانداً عن الحق، فادع الله يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ : الإسلامُ يَجُبُّ ما كان قبله، قلت: يا رسول الله، علي ذلك، قال: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أَوْضَعَ فيه من صَدٍّ عن سبيلك، قال خالد: وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمتُ يَعْدِلُ بي أحداً من أصحابه فيما حَزَبَهُ»[١].

خالد في غزوة مؤتة

وابتعث النبي ﷺ بثلاثة آلاف إلى «مُؤتَةَ»؛ وهي قرية بالبلقاء من أعمال دمشق، وجعل على الناس أميراً زيد بن حارثة، وذكر لهم أنه إذا مات زيد أو قتل يخلفه جعفر بن أبي طالب، ثم إن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة أميرهم، ثم إن قتل ابن رواحة فجعل للناس أن يختاروا بينهم رجلاً يرتضونه. وجعل المسلمون على ميمنتهم قُطْبة بن قتادة العُذْري، وعلى الميسرة عباية بن مالك[٢].

وقد ذكر أبو هريرة أنه شهد«مؤتة»، فلما رأوا المشركين بَصُروا بها لم يروا أن أحداً له طاقة به من العُدَّة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، حتى إن بصر أبي هريرة نفسه قد بَرَق[٣]. وقد كان المسلمون قد نزلوا «مُعَان» ، فبلغهم أن هرقل نزل بمأرب في مئة ألف من الروم ومئة ألف من المستعربة، فأقاموا بمعان يومين فقالوا: نبعث إلى رسول الله ﷺ نخبره بكثرة عدونا، فإمَّا أن يُمدَّنا، وإما يأمرنا أمراً، ولكن ابن رواحة ثناهم عن ذلك بوعظه، وذكَّرهم الشهادة وكرامة الدين، فانشمر الناس حتى لقوا جموع الروم في قرية تدعى «شَرَاف» من قرى «البلقاء»، ثم انحاز المسلمون إلى قرية «مؤتة» قرية فوق «أحساء»[٤].

واستشهد من سماهم رسول الله ﷺ للإمرة، ثم انتدب الناس بعد ابن رواحة خالد بن

---

(١) السابق: ٤/ ٣٥١ـ ٣٥٢. وحَزَبَهُ: إذا نزل به أمر مهم أو أصابه غم. وقد جاءت رواية عمر متضمنة نفس الأقوال تقريباً عند الرسول ﷺ ، كما أنها تضمنت ما قال خالد من أنه لم يعدل به وخالداً أحداً من أصحابه. انظر الدلائل للبيهقي: ٤/ ٣٤٨.

(٢) السابق: ٤/ ٣٦١ـ ٣٦٢.

(٣) السابق: ٤/ ٣٦٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ٥/ ٢٦ـ٢٧.

الوليد الذي جاس بالناس، ودافع فانحاز وانحيز عنه، ثم انصرف بالجيش[١].

والظاهر أن خالداً التزم خطة دفاع وانسحاب في آن معاً، وهذا هو مدلول عبارة «فجاس بالناس فدافع وانحاز وانحيز عنه» في رواية ابن إسحاق، وجاءت عند ابن هشام بلفظ: «وخاشى بهم»؛ أي أبقى عليهم[٢].

ومدلول «انحاز وانحيز عنه» يؤول إلى كر وفر وإقدام وإحجام، وهذا ما يدعى في عصرنا بالمناورة الحربية؛ وهي هنا مناورة للانسحاب؛ وتكشف عبارة «جاس بالناس، عن هذا المعنى؛ إذ تشير ظلال معناها في اللغة إلى الطواف والتوغل والتردد هنا وهناك؛ وهذا المدلول تنبىء عنه كتب اللغة بالتدقيق[٣]. وجاءت لفظة أخرى عند ابن إسحاق: «جاش بالقوم».

ويكشف الواقدي في رواية له عن العَطَّاف بن خالد عن هذه الخطة فيقول: «لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمتهُ ساقَتَهُ، وساقَتَهُ مقدمَتَهُ، وميمنته ميسرتهُ، قال: فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا : قد جاءهم مَدَدٌ، فَرُعِبُوا وانكشفوا منهزمين، قال: فقُتلوا مَقْتَلَةً لم يُقْتَلها قومٌ»[٤].

وجمع ابن كثير بين الروايتين فقال: «ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين؛ وهو أن خالداً لما أخذ الراية حاش بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيشَ ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة كما ذكره الواقدي، توهم الروم أن ذلك عن مدَدٍ جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله، والله أعلم»[٥].

وكلمة «حاش بالقوم» هي من «حاشَ الصيدَ» إذا جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحِبالة[٦] التي هي شبكة الصائد.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٤/ ٣٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٥/ ٣٠. وكذلك جاءت رواية عند ابن كثير في البداية والنهاية: ج٤، غزوة مؤتة.

(٣) لسان العرب(جوس).

(٤) البداية والنهاية: المشار به السابق.

(٥) السابق: نفسه.

(٦) لسان العرب(حوش).

خالد يوم فتح مكة

أعز الله الإسلام يوم فتح مكة التي أضحت دار الإسلام، وكان ماكان من استعراض الجيش أمام أبي سفيان، وكان الرسول ﷺ قد جعل الأمان لأبي سفيان ولكل من دخل المسجد، وأمر ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل مكة من مكان حدده له بقطعة من الجيش[١]، وعلا رسول الله ﷺ في أثناء ذلك ثَنِيَّة «كَدَاءَ» ، وأمكنه أن يرى بوارق سلاح على الجبل مما أشعر بقتال يدور، فقال ﷺ : «ما هذا وقد نَهَيْتُ عن القتال؟» فما كان من الذين حوله إلا أن قالوا: «نظن أن خالداً قُوتِلَ، وبُدِىءَ بالقتال، فلم يكن له بدٌّ من أن يقاتل من قَاتلَهُ، وما كان ـ يا رسول الله ـ لِيَعْصِيَكَ ولا يُخالفَ أَمْرَكَ»، وكان القائلون له ذلك من المهاجرين[٢].

وقتل من خيل خالد رجلان هما: حُبيش بن الأشعر، وكُرْزُ بن جابر الفِهري[٣]، وقيل: إنهما جُرِحَا[٤]، ولعلهما ماتا بجراحهما جمعاً بين الروايتين.

وبعد ذلك سأل رسول الله ﷺ خالداً: «لم قاتلت وقد نهيتُكَ عن القتال؟» فقال: «هم بدؤونا بالقتال، ووضعوا فينا السلاح، وأشعرونا بالنَّبل، وقد كَفَفْتُ يدي ما استطعتُ» ، فقال عليه الصلاة والسلام: «قضاء الله عز وجل خيرٌ»[٥]. وكان ذلك في سنة ثمان للهجرة. وكان المكان الذي حدده النبي ﷺ لخالد كي يدخل منه إلى «مكة» هو «الليط» أسفل مكة[٦].

بعثة خالد إلى نخلة

وبعث رسول الله ﷺ لما فتح مكة خالداً إلى «نَخْلَةَ» ، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد بن الوليد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطعهن، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً» ، فرجع خالد، ولما نظر السَّدَنَةُ إليه ـ وهم حُجَّابُ العزى ـ أمعنوا فراراً يصعدون الجبل قائلين: «ياعُزَّى، خَبِّلِيْهِ، ياعُزَّى، عَوِّرِيْهِ، وإلا فموتي

---

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ٣٨.
(٢) السابق: ٥/ ٤٤.
(٣) السابق: ٥/ ٣٩.
(٤) السابق: ٥/ ٤٤ـ ٤٥.
(٥) السابق: ٥/ ٤٨.
(٦) سيرة ابن هشام: ٥/ ٦٦.

بِرَغْمِ»[١] ، وذكر الراوي أن خالداً أتاها فإذا امرأة عُرْيَانَةٌ ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فَجَلَّلها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ، فأخبره أن تلك هي العزى[٢].

بعث النبي ﷺ خالداً إلى بني جَذيمة

وبعث النبي ﷺ خالداً إلى بني جذيمة داعياً، ولكنه أعمل في القوم السيف قتلاً، ولما أسر المسلمون معه من أسروا أصر خالد على أن يقتل كل فرد أسيره، فأبى ابن عمر وحلف على ذلك، وكذلك فعل الناس مثل ما فعل ابن عمر رضي الله عنهما، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ بعد رجوع القوم فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» قالها مرتين رافعاً يديه[٣].

وقد ذكر ابن إسحاق أن خالداً لما وضعوا السلاح أمر بالأسرى فكُتِفوا ثم عرضهم على السيف فقتل منهم من قَتَلَ[٤] .

وذكر أن بني جذيمة هؤلاء قد كانوا أصابوا في الجاهلية عمه الفاكه بن المغيرة، وهذا لو صح يكشف عن عنعنات في نفس خالد جاهلية، مازالت رواسب منها في أعماقه تطل برأسها كلما وجدت سبيلاً إلى ذلك، وهذا أوان ذلك كما ظهر.

وكذلك فقد ذكرت رواية أن بني جذيمة لم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، أسلمنا، فقالوا: صَبَأنا، صبأنا[٥]، وهذا يَشي بأن القوم وقعوا في شدة شديدة وعنت حتى ذهلوا عن أبسط الكلام، وهذا يعلمه كل من لاقى ضيقاً ومشقة، فقد يذهل عن أبسط الأمور في لغته، ومن الطرائف أن هذا قد حصل معي مرات ومرات حتى إنني في إحداهن أنسيت اللغة الدارجة لأهل بلدي، ولم أذكر كلماتها ولم يجر على لساني سوى اللغة الفصيحة، وكان هذا في غاية الحرج أمام الناس الذين تضايقت منهم.

وجاء في الرواية الأخرى ما يؤكد هذه العنعنات الجاهلية ورسوبها في نفس خالد؛ إذ دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب قائلاً له: «اخرج إلى هؤلاء القوم فَأَدِّ دماءهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» ، فخرج علي وقد نفحه الرسول ﷺ المال لِيَدِيَ القوم دماءهم وأموالهم

---

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ٧٧. وخبيله: من الخبال؛ أي النقصان والهلاك. والرغم: التراب.

(٢) السابق: نفسه.

(٣) السابق: ٥/ ١١٣ـ١١٤.

(٤) السابق: ١١٤. والسيرة النبوية لابن هشام: ٥/ ٩٥.

(٥) دلائل البيهقي:٥/ ١١٤. وصبأ الرجل عن دينه: إذا خرج عنه إلى دين آخر. لسان العرب(صبأ).

حتى أعطاهم ثمن مِيْلَغَةِ [1] الكلب، حتى أعطاهم ما فَضَلَ معه من مال وأبلغهم أنه احتياط للرسول ﷺ فيما لا يعلمه ﷺ وفيما لا يعلمونه هم، واستحسن الرسول ﷺ صنيعه[2].

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قد وقع بينه وبين خالد كلام؛ وكان مما قاله ابن عوف لخالد فيما صنعه من أمر هذه البعثة : «عملتَ بأمر الجاهلية في الإسلام»، فقال خالد : «إنما ثأرت بأبيك»، فقال عبد الرحمن بن عوف: «كذبت قد قتلتُ قاتلَ أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة» ، حتى تفاقم الأمر بينهما في الكلام، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لخالد: «مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أُحُدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غَدْوَةَ رجل من أصحابي ولا رَوْحَتَهُ»[3]؛ يعني النبي ﷺ: الغدوة والروحة في سبيل الله .

وفي رواية الواقدي كلام بينه وبين عمر؛ وهي رواية ساقطة بسبب جهالة رجل في سندها لا يعرف اسمه[4]، ولذلك لم نعرج عليها، ولم نذكرها هنا إلا ما ثبت من المرويات فقط، وقد قال الذهبي: «ولخالد اجتهاده، ولذلك ما طالبه النبي ﷺ بدياتهم»[5].

وهذا القول يصح فيما لو لم يثبت أن خالداً فعل ما فعل دون أن يكون في نفسه شيء، ثم. إن ما ذكرناه يوضح هذا، فلا يتأتى أن ينسب إلى خالد الاجتهاد حتى يدفع عنه تعمد الخطأ، بل خالد كسواه ممن كان حديث العهد بالإسلام آنذاك من الأنصار وغيرهم، من الذين بدرت منهم رواسب الجاهلية، وكلنا نذكر غزوة بني المصطلقّ حيث تداعى الأوس والخزرج على بعضهم بدعوى الجاهلية، وكاد ينشب القتال حتى ردهم النبي ﷺ إلى المفهوم الصحيح حيث لم يعودوا إلى هذه العنعنات البتة، فخالد بشر يصيب ويخطىء، ولسنا في حاجة إلى الدفاع عن أشخاص أو عن التاريخ، فهذا فيه ضرب من عدم التبصر في الأمور، فالذي ينبغي أن تذكر الحقائق والمرويات الصحيحة أو الحسنة ليس غير.

---

(١) ميلغة الكلب: شيء يحضر من خشب ويجعل فيه الماء كي يلغ الكلب فيه؛ أي كي يشرب. لسان العرب(ولغ).
(٢) دلائل البيهقي: ٥/ ١١٤ـ١١٥. وسيرة ابن هشام: ٥/٩٦.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٥/ ٩٧.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٥.
(٥) السابق: نفسه.

وصية النبي ﷺ لخالد بألا يقتل النساء

وقد روى الحاكم في مستدركه أن النبي ﷺ غزا غزوة كان على مقدمته فيها خالد بن الوليد، فمر رَبَاحٌ وأصحابه على امرأة مقتولة مما أصابته المقدمة، فوقفوا عليها يتعجبون من خَلقها حتى لحقهم رسول الله ﷺ، فَفَرَّجوا له حتى نظر إليها فقال: «ما كانت هذه تقاتل»، ثم نظر في وجوه القوم فقال لأحدهم: «الحق بخالد بن الوليد، فلا يقتلن ذُرِّيَّةً ولا عَسِيفاً»[١] .

ورواية ابن إسحاق بأن خالداً قتل المرأة هي رواية منقطعة كما جزم ابن كثير في تاريخه[٢].

بين علي وخالد رضي الله عنهما

وروى عبد الله بن بُريدة الأسلمي قال: «إني لأمشي مع أبي إذ مر بقوم ينتقصون علياً رضي الله عنه يقولون فيه، فقام فقال: إني كنت أنال من علي وفي نفسي عليه شيء، وكنت مع خالد بن الوليد في جيش فأصابوا غنائم، فعمد علي إلى جارية من الخُمُس فأخذها لنفسه، وكان بين علي وبين خالد شيء، فقال خالد: هذه فرصتك، وقد عرف خالد الذي في نفسي على علي. قال: فانطلق إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأتيت النبي فحدثته ـ وكنت رجلاً مِكباباً، وكنت إذا حدثت الحديث أَكْبَبْتُ ـ ثم رفعت رأسي، فذكرت للنبي ﷺ أمر الجيش، ثم ذكرت له أمر علي، فرفعت رأسي وأوداج رسول الله ﷺ قد احمرتْ. قال: قال النبي ﷺ : من كنت وَلِيَّهُ فإن علياً وَلِيُّهُ، وذهب الذي في نفسي عليه»[٣].

خالد سيف الله المسلول

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه دعا خالداً «سيف الله المسلول» ؛ فقد جاء أن أبا بكر عَقَدَ لخالد على قتال أهل الرِّدة وقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سَلَّهُ الله على الكفار والمنافقين»[٤].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ، للحاكم أبي عبد الله، تحقيق مصطفى عطا، ط(١)، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م: ٢/ ١٣٣. وهو صحيح.

(٢) البداية والنهاية: ج٤، فصل هزيمة هوازن. ورباح هو الراوي؛ وهو جد المرقع بن صيفي بن رباح الذي روى عنه هذا الحديث.

(٣) المستدرك للحاكم: ٢/ ١٤١. والأوداج: عروق الرقبة.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٥.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: «كان في بني سُليم رِدَّةٌ، فبعث أبو بكر إليهم خالد ابن الوليد فجمع رجالاً منهم في الحظائر، ثم أحرقهم، فقال عمر لأبي بكر: أتدع رجلاً يُعَذِّبُ بعذاب الله؟ قال: والله لا أَشِيمُ سيفاً سله الله على عدوه، ثم أَمَّرَهُ فمضى إلى مسيلمة»[١].

وعن أبي الجعفاء السلمي قال: «قيل لعمر: لو عهدت يا أمير المؤمنين، قال: لو أدركتُ أبا عبيدة ثم وَلَّيْتُهُ، ثم قدمت على ربي فقال لي: لم استخلفتهُ؟ لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة» ، لو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته فَقَدِمْتُ على ربي لقلتُ: سمعت عبدك وخليلك يقول: «خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين»[٢].

واستعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالداً؛ فقال أبو عبيدة: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة»[٣].

وعن أنس: نعى النبي ﷺ أمراء يوم مؤتة فقال: «أصيبوا جميعاً، ثم أخذ الراية بعدُ سيفٌ من سيوف الله خالد»، وجعل يحدث الناس وعيناه تذرفان[٤]. وقال رسول الله ﷺ : «إنما خالد سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار»[٥].

بين خالد وعمار بن ياسر

وعن خالد رضي الله عنه أنه قال: «كان بيني وبين عمار شيء، فشكوته إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : من يَسُبَّ عماراً يسبهُ الله، ومن يُعادِ عماراً يعاده الله»[٦].

وجاء في رواية أخرى بيان الخلاف بينهما؛ إذ ذكر خالد رضي الله عنه أن رسول الله بعثه في غزاة فأصابوا من القوم، فقال عمار بن ياسر: «إنهم قد احتجبوا منا بالتوحيد»، فلم يُعَرِّجْ خالد على قول عمار، فشكاه إلى النبي ﷺ كما ذكر، فقال له النبي ﷺ ما قال، وزاد في رواية أخرى: «ومن يحقر عماراً يحقره الله»[٧]، وذكر في رواية أخرى غير هذه كلها قول خالد بعد أن

---

(١) السابق : نفسه. وشَيْمُ السيف: إغماده في غمده.
(٢) السابق: نفسه.
(٣) السابق: نفسه.
(٤) السابق: نفسه. وانظر المستدرك للحاكم: ٣/ ٣٣٨.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٥. وله طرق وروايات أشار إليها الذهبي.
(٦) المستدرك للحاكم: ٣/ ٤٣٩.
(٧) السابق: ٣/ ٤٤٠.

قال له النبي ﷺ ما قال: «فخرجتُ، فما كان شيء أحبُّ إلي من رضا عمار، فلقيته فرضي»[١].

وفي رواية مطولة قال فيها خالد: «ما أتى علي يومٌ قط كان أعظم علي من شأن عمار، لما كان يوم بعثني رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه وأمَّرني عليهم، وكان في القوم عمار فأصبنا قوماً فيهم أهل بيت من المسلمين، فكلمني فيهم عمار وناس من المسلمين قالوا: خَلِّ سبيلهم، قلت: لا والله، لا أفعل حتى يراهم رسول الله ﷺ فيرى فيهم رأيه، فغضب علي عمار، فلما قدمت استأذنت على رسول الله ﷺ، فهو يستخبرني وأنا أحدثه، فاستأذن عمار، فأَذِنَ له، فدخل عمار فقال: يا رسول الله، ألم تر خالداً فعل كذا وكذا؟ فقلت: يا رسول الله، أَمَا والله لولا مجلسك ما سبني ابن سمية، فقال لي رسول الله ﷺ: يا عمار، اخرج، فخرج عمار وهو يبكي ويقول: ما نصرني رسول الله ﷺ على خالد، فقال لي رسول الله ﷺ: ألا أجبت الرجل؟ قلت: ما منعني أن أجيبه إلا مَحقرةً له، فغضب رسول الله ﷺ فقال: إنه من يبغض عماراً يبغضه الله، ومن يسب عماراً يسبه الله، ومن يحقر عماراً يحقره الله، فخرجت من عند رسول الله ﷺ، فلم أزل أطلب إلى عمار حتى استغفر لي»[٢].

فهذا يدل على أن ما ذكرناه من قبل؛ من أن خالداً رضي الله عنه ظلت في نفسه بعض عنعنات الجاهلية، ومنها التيه والخيلاء، اللذان قد يأكلان صاحبهما، ولما أفهمه رسول الله ﷺ الموقف رجع به إلى الموقف الصحيح الذي يجب اتخاذه في مثل هذه الحال، وهكذا كان خالد كلما تقدم فيه العمر رضخ للإسلام وقوم من نفسه وهذبها حتى أجاد صِقَالَهَا كي يكون شامة في أعين الناس كشأن كل مؤمن يخاف ربه جل وعلا.

بين خالد وسعد

وذكر أنه كان بين خالد وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما كلام؛ فتناول رجلٌ مرةً خالد بن الوليد في أثناء هذا عند سعد، فقال سعد رضي الله عنه: «إن ما بيننا لم يبلغ ديننا»[٣].

وهذا من الخلق العظيم لدى سعد رضي الله عنه، وهكذا كانت الرجال؛ فهم بشر يشعرون بما

---

(١) السابق: ٣/ ٤٤١.

(٢) السابق: ٣/ ٤٤١.

(٣) فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل، تحقيق وصي الله محمد عباس، ط(١)، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م: ٢/ ٧٥١.

يشعر البشر؛ فيغضبون ويثورون، ويتكلمون كلاماً فظاً، وفي كل هذا هم بشر يصيبون ويخطئون ويستغفرون ربهم، وهم في كل هذا على علم وبينة بالحق ينصاعون له كلما ذكرهم مذكر به، على أنهم في اعتقادهم لا يتزعزعون؛ فعقيدتهم ثابتة الأركان واضحة نقية لا يتخللها شائبة، ولا غَبَش.

يوم حنين

وبعد مقتلة بني جذيمة كانت معركة «حنين»؛ وفيها نرى أن النبي ﷺ لم تهتز ثقته بخالد رضي الله عنه؛ فهو قد أسند إليه قيادة الخيل على طليعة الجيش، وقد سأل عنه بعد المعركة وهزيمة الخيل.

ولقد وصفت الروايات هذه الغزوة بما يجعلنا نجملها ها هنا؛ فقد بدا أن المسلمين قد أعجبتهم كثرتهم بعد فتح مكة كما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥]، فهذه الآية توضح شعور المسلمين الذين كانوا قد أشاروا لدى بدء المعركة أنهم لن يُغْلَبوا عن قلة.

واجتمعت قبائل هَمْدان وهَوَزان وثقيف وجُشَم يتداعون الناس إلى غزو المسلمين والإجهاز عليهم وخضد شوكتهم، ولباهم عددكبير من بني سعد بن بكر الذين كان النبي ﷺ فيهم قد رُبي رضيعاً. وتولى أمرهم مالك بن عوف النصري الذي ناهز الثلاثين تقريباً، في أنفته وعنجهيته الجاهلية وحميته، وأمرهم إذا شهدوا المسلمين أن يكسروا جفان سيوفهم وأن يشدوا عليهم شَدَّةَ رجل واحد؛ فهم إما أن يفوزوا ويغنموا ، وإما أن يهلكوا .

وجاء المشركون بأحسن صفوف، وصفت الخيل ثم المُقَاتِلَةُ ثم صفت النساء من وراء ذلك، ثم الغنم، ثم النَّعَم، والمسلمون في ستة آلاف، وعلى مُجَنِّبَةِ الخيل خالد بن الوليد، فجعلت الخيل تلوي خلف ظهور المسلمين حتى انكشفت هذه الخيل، ثم فرت الأعراب ومن كان مما يعرف منه ذلك من الناس، ونادى رسول الله بالمهاجرين وصاح بالناس : «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله، يا أيها الناس، إليَّ، أنا عبد الله ورسوله»، واقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، ونادى في الأنصار كما نادى في المهاجرين، فأجابه الأنصار: «لبيك يا رسول الله»، وحثى الرسول ﷺ التراب في وجوه القوم قائلاً: «شاهت الوجوه»،وما عتم الناس أن التفوا حول

نبيهم وهزموا المشركين[١].

ويكون مجموع الجيشين على روايات عروة والزهري وموسى بن عقبة، اللذين سار بهما رسول الله ﷺ إلى «هوازن» أربعة عشر ألفاً؛ إذ قدم باثني عشر ألفاً إلى مكة على قولهم، وأضيف ألفان من الطُّلقاء، كما ذكر ابن إسحاق أنه ﷺ خرج من مكة في خامس شوال مستخلفاً عليها عَتَّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي الذي كان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة[٢].

وكان مالك بن عوف قد سبق الرسول ﷺ بمن معه إلى «حنين»، كما روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال: «لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تِهَامَةَ أجوفَ حَطُوط[٣] إنما ننحدر فيه انحداراً ـ قال: وفي عَمَايَة[٤] الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي، فكَمَنُوا لنا في شِعَابِهِ وأحنائه ومَضَايِقِهِ، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا ـ فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائبُ قد شَدَّتْ علينا شدةَ رجلٍ واحد، وانهزم الناسُ أجمعون، فانشمروا لا يُلوي أحد على أحد».

«وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: أين أيها الناس؟ هلم إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، قال: فلا شيء، احتملت الإبل بعضها بعضاً، فانطلق الناس إلا أنه بقي مع رسول الله ﷺ نَفَرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وممن ثَبَتَ معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل، وأبو سفيان ابن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد ـ وهو أيمن ابن أم أيمن ـ وأسامة بن زيد بن حارثة».

«قال: ورجُلٌ من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، أمام الناس وهوازن خلفه، إذا أدرك طَعَنَ برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه، فاتبعوه. ولما انهزم الناس ورأى مَنْ كان مع رسول الله ﷺ من جُفَاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما

---

(١) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت - دار إحياء التراث العربي: ٢/ ٧٣٦. حديث برقم(١٠٥٩). ودلائل البيهقي: ٥/ ١٣٧ - ١٤١ .

(٢) البداية والنهاية: ج٤، غزوة هوازن يوم حنين.

(٣) أجوف: متسع. وحَطُوط: من الحط؛ أي أنه منحدر جداً.

(٤) عماية الصبح: ظلامه قبل أن يتبين.

في أنفسهم من الضِّغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتُهم دون البحر؛ والأزلام معه في كنانته، وصرخ كَلَدَةُ بن الحنبل ـ وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خلف، وكان أخاه لأمه، وصفوان يومئذ مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ ـ فقال: ألا بَطَلَ السِّحرُ اليوم، فقال له صفوان: اسكت، فَضَّ الله فاك، فوالله لَأَنْ يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار: قلت: اليوم أدرك ثأري ـ وكان أبوه قتل يوم أحد ـ اليوم أقتل محمداً، قال: فأردتُ رسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي فلم أطق ذلك، وعلمتُ أنه قد مُنع مني»[1].

فالذي يستفاد مما ذكر من الروايات أن خالداً كان على الخيل، وقد كمن لهم مالك بن عوف النصري في مضايق الوادي وأحنائه، وكان ذلك في عماية الصبح، فلما انحط الناس من المسلمين ثارت في وجوههم الخيل، وانكفأ الناس منهزمين لا يُقبل أحد على أحد، وقد فَجَأَهم المشركون كما يذكر من شعبة من الوادي فقابلوهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، وكان الذين يرمون من المشركين رماة لا يسقط لهم سهم، وهكذا أدبرت الخيل وانهزمت المقاتلة، وكان إدبار الخيل فيما يظهر لانجفالها من السهام، وهي جفلة حيوانية تنقلب على أصحابها غالباً كما ذكر في التاريخ في أمثال هذه المواقف، وسيكون لهذه الخطة شأن لدى المسلمين إزاء الفرس الذين استخدموا الفيلة في حربهم مع المسلمين، مما جعل المسلمين يركزون على ضربها ـ أي الفيلة ـ في أعينها وخياشيمها مما أفضى إلى انكفائها تطأ كل ما تجده من أصحابها أمامها[2].

وفي حنين صار «الرجل يلوي بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، ويَؤُمُّ الصوت»[3].

وأما خالد فكان قد ثنى عنان فرسه بعد أن التوى في الجهة الأولى، وشرع يقاتل حتى أصابته الجراح بحيث لا يقوى على السير من مؤخرة رحله، ووجده النبي ﷺ حين خرج يتفقد الجرحى فبارك له وواساه.

وقال ابن أزهر فيما رواه البيهقي: «ثم رأيت النبي ﷺ بعد ما هَزَمَ الله الكفار ورجع

---

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: ٣/ ٧٤ـ ٧٥.
(٢) عبقرية خالد للعقاد: ٦٤.
(٣) السابق: نفسه.

المسلمون إلى رِحالهم يمشي في المسلمين ويقول: من يدل على رَحْل خالد بن الوليد؟»[١].

وفي رواية المسند عن عبد الرحمن بن أزهر الصُّنابحيِّ الأحمسي: «جُرِحَ خالد بن الوليد، فرأيت رسول الله ﷺ يسأل عن رحله، قلت، وأنا غلام: من يدل على رحل خالد؟ فأتاه وهو مجروح فجلس عنده»[٢].

وروى أحمد أيضاً رواية أخرى فيها زيادة: «قال: فمشيتُ ـ أو قال: فَسَعَيْتُ ـ بين يديه وأنا محتلم أقول: من يدل على رحل خالد ؟ حتى حَلَلْنا على رَحْلِهِ، فإذا خالد بن الوليد مستند إلى مُؤْخِرَةِ رَحْلِهِ، فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلى جرحه. قال الزهري: وحسبتُ أنه قال: ونَفَثَ فيه رسول الله ﷺ»[٣].

خالد والمرأة الغامدية

وقد روى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه بريدة الأسلمي قال: «كنتُ جالساً عند النبي ﷺ فجاءته امرأةٌ من غامد، فقالت: يا نبيَّ الله، إني قد زنيتُ، وأنا أريد أن تطهرني، فقال لها النبي ﷺ: ارجعي، فلما أن كان من الغد أتته أيضاً فاعترفَتْ عنده بالزنى، فقالت: يا نبي الله، طَهِّرْني فلعلكَ أن تردني كما رددتَ ماعز بن مالك، فوالله إني لَحُبْلَى، فقال لها النبي ﷺ: ارجعي كي تلدي، فلما وَلَدَت جاءت بالصبي تَحْمِلُهُ فقالت: يا نبيَّ الله، هذا قد وَلَدتُ، قال: فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فَطَمَتْهُ جاءت بالصبي في يده كِسْرَةُ خبز، قالت: يا نبي الله، هذا قد فَطَمْتُهُ، فأمر النبيُّ ﷺ فدفَعَهُ إلى رجل من المسلمين، وأَمَرَ بها فَحُفِرَ لها حفرةٌ، فَجُعِلَتْ فيها إلى صدرها، ثم أمر الناسَ أن يرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فَنَضَحَ الدمُ على وجْنَةِ خالد، فَسَبَّها، فسمع النبي ﷺ سَبَّهُ إياها، فقال: مهلاً يا خالدُ بن الوليد، لا تَسُبَّهَا، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبةً لو تابها صاحبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ له، فأَمَرَ بها فصلى عليها ودُفِنت»[٤].

---

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ١٣٩ـ ١٤٠.

(٢) مسند أحمد، ط. بيت الأفكار الدولية: ١٣٨٠. حديث رقم(١٩٢٩٨).

(٣) السابق: ١١٨٦. برقم(١٦٩٣٣) والراوي هو ابن الأزهر المذكور.

(٤) المسند: ١٦٨٨. برقم (٢٣٣٣٧). وانظر صحيح مسلم: ٣/ ١٣٢٣. برقم(١٦٩٥). والمكس: هي ضريبة أشبه بالجمرك في أيامنا.

دفاع النبي ﷺ عن خالد رضي الله عنه

وروى عوف بن مالك الأشجعي قال: «غزونا غزوة إلى طرف الشام فأُمِّرَ علينا خالد ابن الوليد، قال: فانضم إلينا رجلٌ من أمداد حِمْيَرَ، فأَوى إلى رَحْلنا ليس معه شيءٌ إلا سيفٌ، ليس معه سلاحٌ غَيْرَهُ، فَنَحَرَ رجلٌ من المسلمين جَزُوراً، فلم يَزَلْ يَحْتال حتى أَخَذَ من جِلْدِهِ كهيئة المِجَنِّ حتى بَسَطَهُ على الأرض، ثم وَقَدَ عليه حتى جَفَّ، فجعل له مُمسِكاً كهيئة الترس، فَقُضِيَ أن لَقِينا عدوَّنا فيهم أخلاطٌ من الروم والعرب من قُضَاعَةَ، فقاتلونا قتالاً شديداً، وفي القوم رجلٌ من الروم على فرس له أشقر، وسَرجٍ مُذَهَّب، ومِنْطَقَةٍ مُلَطَّخَة ذهباً، وسيفٌ مثل ذلك، فَجَعَلَ يَحْمِلُ على القوم ويُغْري بهم، فلم يَزَلْ ذلك المَدَدِيُّ يحتال لذلك الرومي حتى مَرَّ به فاستقفاه، فضرب عرقوبَ فرسه بالسيف، فوقع ثم أتبعه ضرباً بالسيف حتى قَتَلَهُ».

«فلما فتح الله الفتحَ أقبل يسأل للسَّلب وقد شهد له الناسُ بأنه قاتِلُهُ، فأعطاه خالدٌ بعضَ سَلَبه وأمسك سائرهُ، فلما رجع إلى رَحْلِ عوفٍ ذَكَرَهُ فقال له عوف: ارجع إليه فليعطك ما بقي، فرجع إليه فأبى عليه، فمشى عوف حتى أتى خالداً، فقال: أمَا تعلم أن رسول الله ﷺ قضى بالسلَّب للقاتل؟ قال: بلى، قال: فما يمنعك أن تدفع إليه سلب قتيله؟ قال خالد: استكثرتُهُ له، قال عوف: لئن رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ لأذكرن ذلك له».

«فلما قدم المدينة بعثه عوفٌ فاستعدى إلى النبي ﷺ، فدعا خالداً وعوفٌ قاعدٌ فقال رسول الله ﷺ: ما يمنعك ـ يا خالد ـ أن تدفع إلى هذا سلب قتيله؟ قال: استكثرته له يا رسول الله، فقال: ادفعه إليه، قال: فمر عوف، فَجَرَّ بردائه فقال: أنجزت لك ما ذكرتُ لك من رسول الله ﷺ، فسمعه رسول الله ﷺ فاستُغْضِبَ فقال: لا تُعْطِهِ يا خالد، هل أنتم تاركي أمرائي؟ إنما مَثَلُكُم ومَثَلُهُم كَمَثَلِ رجلٍ استُرعيَ إبلاً أو غنماً فرعاها ثم تَحَيَّنَ سَقْيَها، فأوردها حوضاً فَشَرَعَتْ فيه، فشربت صفوةَ الماء وتركَتْ كَدَرَهُ؛ فَصَفْوَةُ أمرهم لكم، وكَدَرُهُ عليهم»[1].

بعث خالد إلى أكيدر دومة الجندل

بعد أن استتب الأمر للنبي ﷺ أراد أن يؤثر تأثيراً كبيراً في سائر قبائل العرب ويفرض هيبته في الجزيرة العربية، ثم أراد أن يلفت النظر في الخارج إلى هذه الدعوة، وقد كانت غزوة

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل: ١٧٨٣ ـ١٧٨٤. المنطقة: ما يُنْتَطَقُ به كالنطاق حول الخصر. والمددي: نسبة إلى المَدَد. واستقفاه: طلب قفاه؛ والمراد أنه انتهز أن يضربه من قفاه. وانظر صحيح مسلم: ٣/ ١٣٧٣. برقم(١٧٥٣).

«مؤتة»، ولم يرد النبي ﷺ من جهة أخرى أن يحدث ضربة مميتة في ظل هذه الأوضاع، ومن ثم كان يكفي الهجوم على ثغور الروم في البلقاء وعلى تُخُوم بلاد الشام، ثم لم يرد أن يشغل نفسه بإمارة الروم الصغيرة إذ كان الأهم في هذا أن يلاقي الروم مباشرة لا أن يهدر جهده على هذه الإمارات مثل «دومة الجندل» و «جرباء» و «أذرح» ، فالوضع الدولي آنذاك يستدعي تأجيل ضرب هذه الإمارات وإنهائها فيما لو لم تقبلت ما يعرضه عليها الإسلام.

ومن ثم جاءت مهمة خالد بن الوليد إلى صاحب «دومة الجندل» الذي يدعى «أُكيدر ابن عبد الملك»؛ وهو رجل من «كِنْدَة» كان ملكاً على «دومة الجندل» ، وقد كان نصراني العقيدة، فقال النبي ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر» ؛ يعني البقر الوحشي الذي هو ضرب من الغزلان معروف في الجزيرة بأنه «المَهَا» ؛وهي «المها البِلَّورية» اليوم في عصرنا،وهي على جمال لافت للنظر.

وخرج خالد الذي وصل إلى حصن أكيدر ووقف يرقبه من منظر ما تراه عينه في ليلة مقمرة مُنَوَّرة بالبدر صافية، وكان أكيدر وقتها على سطح قصره مع زوجه، وقد أتت بقر الوحش تحك بقرونها باب القصر، وهو يستمع إلى زوجه التي قالت له: «هل رأيت مثل هذا قط؟»، فأجاب أكيدر: «لا والله» ، فقالت له: «فمن يترك مثل هذا ؟» ، فقال: «لا أحد».

ثم نزل الرجل وأُسرج له الفرس، وخرج في نفر من أهل بيته بينهم أخ له يدعى «حسان» ، وخرجوا برماح قصيرة تدعى «المَطَارِد» آنذاك، وكان أن تلقتهم خيل النبي ﷺ فأخذته وقتل حسان أخوه الذي كان عليه قباء ديباج مُخَوَّص بالذهب، فاستلبه خالدٌ إياه، وبعث به إلى النبي ﷺ قبل قدومه عليه.

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ ، فَحَقَنَ النبي ﷺ له دمهُ وصالحه على الجزية وخلى سبيله، فرجع إلى قريته[1]. وتذكر بعض الروايات أن النبي ﷺ بعث خالداً في مئة وعشرين فارساً، وقد قال له ﷺ : «لعل الله يلقيك أكيدر ـ أحسبه قال: يقتنص ـ فتقتنص المفتاح وتأخذه، فيفتح الله لك دُوْمَةَ»[2]. ولم يسلم أكيدر كما زعم بعضهم بل لم نر رواية صحيحة في هذا.

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ٢٥٠ـ٢٥١.
(٢) السابق: ٥/ ٢٥١.

بعث خالد إلى صنم ثقيف

وجاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ، وأسلم الوفد، ولكن رواسب الجاهلية كانت في نفوسهم؛ فكانوا أرادوا من النبي ﷺ أن يقرهم على بعض ما نهى الشرع، فسألوه أثناء مراجعتهم واختلافهم إليه ليتعلموا الإسلام وينقلوها إلى قومهم أن يدع الربا فهي أموالهم كلها، فأخبرهم بآية البقرة التي تحرم الربا، وسألوه أن يدعهم على شرب الخمر إذ هي عصير أرضهم ولا بد لهم منها، فذكر لهم أن الله حرمها، وساق آية المائدة التي تحرمها.

وسألوه ألا يُحشَروا ولا يُعْشَروا ولا يُجَبُّوا، فقال لهم: «لكم ألا تحشروا ولا تعشروا، ولا خير في دين ليس فيه ركوع»[1].

ومعنى قوله: «تحشروا» من الحشر الذي هو الجهاد، و«لا تعشروا»: أي لا يؤخذ عشر أموالهم؛ يعني الصدقة، وأما التجبية فأصلها أن يُكِبَّ الإنسان على مُقَدَّمه ويرفع مؤخره[2].

والذي روى هذا الشطر من الحديث هو جابر بن عبد الله، وقد سئل عن اشتراط ثقيف ألا صدقة عليها ولا جهاد، فقال: «عَلِمَ أنهم سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[3]. وقد رفض منهم عليه الصلاة والسلام عدم التجبية أي عدم الصلاة لأنها فرض في كل وقت، بينما الجهاد إنما يجب لحضور العدو، والصدقة تجب لحلول الحول[4]؛ فهذا يعني أنه يمكن الصبر عليهم في تأخير الجهاد والصدقة حتى يحين حينها من باب المسايسة في الفرض المُوَسَّع.

وهنا نجمت مسألة خطيرة لا بد من علاجها؛ وهي مسألة تقع في صلب الاعتقاد، وفي جوهر ما أتى الإسلام نفسه. تقول الرواية واصفة ما جرى في هذا الشأن: «فارتفع القومُ، فَخَلا بعضهم ببعض فقالوا: ويحكم، إنا نخاف إن خالفناه يوماً كيوم مكة، انطلقوا نكاتبْهُ على ما سألنا، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: نعم، لكَ ما سألتَ، أرأيت الرَّبَّةَ؟ ماذا نصنع بها؟ قال: اهدموها، قالوا: هيهات، لو تعلم الربة أنك تريد هدمها قَتَلَتْ أهلها، قال عمر بن الخطاب: ويحك يابن عبد ياليل، ما أحمَقكَ! إنما الربَّةُ حَجَرٌ، قالوا: إننا لم نأتك يابن الخطاب، وقالوا: يا

---

(١) معالم السنن، للخطابي، محمد راغب الطباخ، ط(١)، حلب ـ المطبعة العلمية، ١٣٢٥هـ ـ ١٩٣٣م: ٣/ ٣٤.
(٢) السابق: نفسه.
(٣) السابق: ٣/ ٣٥.
(٤) السابق: نفسه.

رسول الله، تَوَلَّ أنت هَدْمَها، فأما نحن فإنا لن نهدمها أبداً، قال: فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها»[١].

واتفقوا مع النبي ﷺ أن يذهبوا إلى قومهم ليَمْهَدوا الطريقَ أمام رسول رسول الله ﷺ، وليتلطفوا في قومهم كي يسلموا أو يجروهم إلى الإسلام بالكلام الذين هم أعلم به من غيرهم في هذا الصدد، وأهل مكة أدرى بشِعابها، وبالفعل أسلمت ثقيف بعد أن خوفهم الوفد وطفق يضرب أخماساً لأسداسٍ، ومكث القوم أياماً بعد أن أسلموا.

«ثم قدم عليهم رُسُل رسول الله ﷺ قد أَمَّرَ خالد بن الوليد، وفيهم المغيرة بن شعبة، فلما قدموا عَمَدُوا إلى اللات ليهدموها، واستكفت ثقيف كلُّها النساءُ والرجال والصبيان حتى خرج العواتق من الحِجال، لا ترى عامَّةُ ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكِرزين[٢]، وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض».

«فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وقالوا: أبعد الله المغيرةَ، قد قتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقالوا: من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها، فوالله لا تُسْتَطاعُ أبداً، فوثب المغيرة بن شعبة فقال: قَبَحَكم الله يا معشر ثقيف، إنما هي لَكَاعِ[٣]، حجارةٌ ومَدَرٌ[٤]، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا على سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوَّوها بالأرض».

«وجعل صاحب المفتاح[٥] يقول: لَيُغْضِبَنَّ الأساسُ فليخسفنَّ بهم، فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حِلْيَتَها، وأخذوا ثيابَها، فَبُهِتَتْ ثقيف، فقالت عجوز منهم: أسلمها الرُّضَّاعُ، وتركوا المِصَاعَ[٦]. وأقبل الوفد

---

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) الكرزين: هي الكرزيم؛ أي الفأس. وهي فارسية الأصل مركبة من «كار = عمل» و«زَنْ= الضرب» أي عمله القطع. معجم المعربات الفارسية، لمحمد ألتونجي، ط(١)، دمشق دار الأدهم، ١٩٨٨م: ١٣٤.

(٣) لكاع: لئيمة. وهذه يعدها النحاة في النداء فقط، ويجعلونها خطأ في الوصف كما هنا.

(٤) المدر: اللَّبِنُ؛ وهو من الطين اليابس.

(٥) وهو سادن الصنم الذي هو الربة عندهم.

(٦) قال ابن الأثير: «الرضاع: جمع راضع؛ وهو اللئيم، سمي به لأنه للؤمه يرضع إبله أو غنمه لئلا يسمع صوتُ حلبه؛ وقيل: لأنه يَرْضَعُ الناسَ؛ أي يسألهم. والمصاع: المضاربة بالسيف». لسان العرب (رضع).

حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بحليتها وكسوتها...»[١].

وهكذا يتضح أن النبي ﷺ كان يركن إلى خالد رضي الله عنه، ويثق به حتى إنه كلفه بهذه الأمور الجليلة التي تمس العقيدة، وسنرى المزيد من هذا إن شاء الله.

خالد معلم في بني الحارث بن كعب

ويبعث النبي ﷺ بخالد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى من سنة عشر إلى نجران حيث هناك بَلْحَارث بن كعب، ويأمره بأن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، وذكر له أنهم إن استجابوا له فليقبل منهم، وليقم فيهم، ولـيعلْمهم كتابَ الله وسنة نبيه ﷺ، ومعالم الإسلام، وإلا فليقاتلهم.

وسار خالد حتى قدم إليهم، فبعث الركبان في كل وجه يضربون، ويعلمون الناس الإسلام داعين إليه يقولون: «أيها الناس، أسلموا تسلموا»، ودخل الناس في الإسلام، وأقام خالد فيهم كما أوصاه النبي ﷺ.

ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك ـ يا رسول الله ـ ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك، بعثتني إلى بني حارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتُهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلمتُهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يُسلموا قاتلتهم، وإني قَدِمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً قالوا: يابني الحارث، أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أَظْهُرِهم، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأُعَلِّمَهُم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»[٢].

ورد عليه النبي ﷺ بكتاب هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلاهو، أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسلك بخبرِ أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى ما

(١) دلائل البيهقي: ٥/ ٣٠٣ـ٣٠٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ١٢٦ـ١٢٧.

دعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فَبَشِّرْهم وأنذِرْهم، وأقبلْ وليقبلْ معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[1].

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ مع وفد بلحارث بن كعب، ولما قدموا على النبي ﷺ ورآهم قال: «مَنْ هؤلاء القومُ الذين كأنهم سيوف الهند؟» فذكر له ﷺ أنهم بنو الحارث بن كعب، ولما وقفوا على الرسول الله ﷺ وسلموا عليه قالوا: «نشهد أنك رسول الله، وأن لا إله إلا الله»، وأكد لهم النبي ﷺ أنه يشهد مثل شهادتهم، ثم قال لهم: «أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا ؟» فسكت القوم ولم يراجعه منهم أحد، وأعاد ذلك أربع مرات، وفي الرابعة قال يزيد بن عبد المَدان: «نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زُجرنا استقدمنا»، وكرر ذلك أربع مرات، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو أن خالد بن الوليد لم يكتبْ إلي فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم».

وهنا أجاب يزيد بن عبد المدان: «أما والله يا رسول الله، ما حَمِدناك ولا حمدنا خالداً، فقال رسول الله ﷺ : «فمن حمدتم ؟» قالوا: «حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله» ، فقال ﷺ : «صدقتم»، ثم قال: «بم كنتم تَغْلبون من قاتلكم؟»، قالوا: «يا رسول الله، كنا نغلب من قاتلنا أن كنا بني عبيد، وكنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم»، قال: «صدقتم»، ثم رجع الوفد إلى قومهم في آخر شوال أو صدر ذي القعدة بعد أن أمَّر الرسول ﷺ عليهم قيس بن الحصين[2].

وهكذا استطاع خالد أن يمضي شوطاً بعيداً في مهمته؛ إذ قام بالدعوة على نحو فيه تميز حتى اجتذب القوم إلى الإسلام في برهة وجيزة جداً، وهذا مما يكلف طاقات عالية وتنظيماً دقيقاً عالياً، وإشرافاً من خالد رضي الله عنه على كل خيط من خيوط شبكته التي ألقى بها في خضم هؤلاء القوم الذين كانوا مشركين، ونجح نجاحاً منقطع النظير.

يبقى هنا أن نوضح أن بني الحارث هؤلاء من بطون العرب؛ وهم بنو الحارث بن كعب ابن عمرو أحد بطون مَذْحِجَ، وبنو الحارث أنفسهم ينشعبون إلى فروع كثيرة أو بطون ؛ منهم

(١) السابق: ٣/ ١٢٧.
(٢) السابق: ٣/ ١٢٧ـ ١٢٨.

بنو زياد وبنو الديَّان؛ وبنو الديان هؤلاء كانت لهم الرئاسة في «نجران»، والمُلكُ على العرب بها، وكان الملك منهم في عبد المدان بن الديان، ثم انتهى إلى يزيد بن عبد المدان قبل البعثة.

ومن بطونهم أيضاً بنو قنان كما ذكر ابن هشام وغيره، ومنهم بنو الضِّباب[1]. وقد أرسل النبي ﷺ عمرو بن حزم إلى بني الحارث كي يفقههم أمور دينهم، وكتب إليه صحيفة فيها عهده يأمره فيها وينهاه[2].

ويبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمن، ويظهر من رواية أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه أنهم مكثوا ستة أشهر يدعون الناس إلى الإسلام، غير أن البراء ذكر أن الناس لم يجيبوا خالداً رضي الله عنه، ثم ابتعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب وخير من أحب البقاء مع علي أن يبقى، ومن أراد الرجوع مع خالد أن يرجع، ثم لما دنا علي ومن معه من القوم صلى بهم علي ثم صفهم صفاً واحداً، ثم تقدم إليهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت هَمدانُ جميعاً، وكتب علي بذلك إلى النبي ﷺ، فلما قرأ النبي ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»[3].

ولا ندري على وجه الدقة والتحديد لماذا لم يذعن الناس لخالد رضي الله عنه بالإسلام؟

والفترة التي مكث فيها هي ستة أشهر كما تدل الرواية الصحيحة؛ فالذي يتبادر إلى الذهن أن خالداً قد دعا بين هؤلاء القوم وأثار فيهم ما أثار من جدالات ونقاشات، وحرك الناس بهذه العقيدة الصحيحة، وأحدث فيهم أثراً طبيعياً تجاه اختيارهم بتوجيهه، ولولا هذا لما كان القوم قد أسلموا في ظل هذه الظروف والأوضاع مع مجيء كتاب الرسول ﷺ وقدوم علي ليقرأه كما ذكر.

وهنا تحضرني قصة أبي ذر رضي الله عنه حين أوفده الرسول ﷺ إلى قومه، فأسلم قسم ثم ظل قسم يقول : لا نسلم حتى يقدم رسول الله إلينا[4]، وهذه الأمور قد تحدث لو تأمل فيها المتأمل.

---

(١) مكاتيب الرسول، علي بن حسين علي الأحمدي، بيروت ـ دار صعب: ١/ ١٨٤.
(٢) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ١٢٨. وانظر البداية والنهاية: ج٥، في سنة عشر، باب بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد.
(٣) دلائل البيهقي: ٥/ ٣٦٩. ورواه البخاري مختصراً من وجه آخر. انظر البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط(٣)، بيروت ـ دار ابن كثير ـ اليمامة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٩٧م: ٤/ ١٥٨٠. حديث برقم(٤٠٩٢).
(٤) دلائل البيهقي: ٢/ ٢١٢.

ثم إن البشر ليسوا آلات تدار، ولا يمكن أن يقاسوا بأسباب المادة ومقاييسها، فهم بشر بكل ما تشير إليه هذه الكلمة من كونهم عرضة للأهواء والميول والشهوات واصطدام المصالح، والمجتمع مهما قيل في حقه فإن توجيهه بالأفكار هو أمر يشبه نحت الصخر بالأظافر، ولا يتوقع دوماً استجابة هذا المجتمع لما يراد له من أطروحات وقضايا، وليس معنى نجاح خالد رضي الله عنه مع بني الحارث بن كعب أنه سوف ينجح هذا النجاح مع غيرهم، فالمسألة أعمق من هذا الظاهر الذي يتراءى للناس عادة.

قصة مع الخوارج

روى أبو سعيد الخُدري قائلاً: «بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذُهَيْبَةٍ[١] في أديم مقروظ[٢] لم تُحَصَّلْ[٣] من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا أحقَّ بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألاَ تأمنونني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء؟ قال: فقام رجل غائر العينين[٤]، مُشْرِفُ الوجنتين[٥]، ناشز الجبهة، كَثُّ[٦] اللحية، محلوق الرأس، مُشَمِّرُ الإزار[٧]، فقال: يا رسول الله، اتق الله، قال: ويلكَ، ألستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقي اللهَ؟ قال: ثم ولى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، لعله أن يكون يصلي، فقال خالد: وكم من مُصَلٍّ يقول بلسانه ماليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: إني لم أُومَرْ أن أَنْقُبَ[٨] قلوبَ الناس ولا أشق بطونهم، قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ[٩] فقال: إنه يخرج من ضِئْضِيءِ[١٠] هذا قومٌ يتلون

(١) ذهيبة: تصغير ذهبة؛ وهي القطعة من الذهب.
(٢) المقروظ: المدبوغ بالقرَظ؛ وهو نبت معروف لدى العرب.
(٣) تحصل: تُخَلَّص.
(٤) غائر العنين: أي عيناه داخلتان في محاجرهما، لا صقتان بقعر الحدقة.
(٥) مشرف: بارز.
(٦) كث الليحية: أي لحيته كثيفة.
(٧) مشمر الإزار: إزاره مرفوع عن كعبه.
(٨) أنقب: أفتح وأشق.
(٩) مُقَفٍّ: مُوَلٍّ ومُدْبر.
(١٠) ضِئضِيء: أصل.

كتابَ الله رَطْباً[1]، لا يجاوز حناجرهم، يَمْرُقُونَ من الدِّين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ[2]؛ وأظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود[3]».

لقد بين النبي ﷺ لخالد وللمسلمين أن البشر إنما يحكمون بالظاهر والله يتولى السرائر، وجعل هذا هو الأصل والقاعدة، وكذلك فإن خالداً لن يُقَيَّض له أن يلقى هؤلاء القوم الذين سوف يخرجون في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ إذ توفي خالد في خلافة عمر رضي الله عنهما. وقد دعي هؤلاء المارقون بالخوارج الذين جاءت روايات أخرى عن النبي ﷺ تبين أوضاعهم وأوصاف أناس منهم بأعيانهم.

مما رواه خالد عن النبي ﷺ

لم يكن خالد رضي الله عنه من المكثرين من الحديث عن النبي ﷺ؛ فقد شغله الغزو والجهاد عن هذا كله كما يتضح للمتأمل في سيرته؛ فمما رواه خالد رضي الله عنه ما روى عنه ابن عباس رضي الله عنهما أنه أخبر أبا أُمامة بن سهل أن خالد بن الوليد أخبره أنه دخل مع رسول الله ﷺ على ميمونة بنت الحارث ـ وهي خالتهُ ـ فَقَدَّمَتْ إلى رسول الله لحمَ ضَبٍّ جاءت به أمُّ حُفَيد بنتُ الحارث من نجد؛ وكانت تحت رجل من بني جعفر، وكان رسول الله ﷺ لا يأكل شيئاً حتى يعلم ماهو، فقال بعض النسوة: ألا تُخبرنَ رسولَ الله ﷺ ما يأكل؟ فأخبرتهُ أنه لحم ضب، فتركه، فقال خالد: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ: أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه طعام ليس في قومي فأَجِدُني أَعَافُهُ، قال خالد: فاجتررتُهُ إليَّ فأكلتهُ ورسول الله ﷺ ينظر»[4].

وروى علقمة عن خالد قال: «كان بيني وبين عمار بن ياسر كلامٌ، فأَغْلَظْتُ له في القول، فانطلق عمار يشكوني إلى النبي ﷺ، فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبي ﷺ، قال: فَجَعَلَ يُغْلِظُ له ولا يزيدُ إلا غِلْظَةً، والنبي ﷺ ساكتٌ لا يتكلم، فبكى عمار وقال: يا رسول الله، ألا تراه؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسَهُ، قال: من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، قال خالد: فخرجتُ، فما كان شيءٌ أحبُّ إلي من رضا عمار، فلقيته فرضي»[5].

---

(١) رطباً: سهلاً.
(٢) الرمية: الصيد المرمي يصيبه السهم فينفذ من ناحية إلى أخرى، ويخرج دون أن يعلق به دم لسرعته.
(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٥٨١. حديث برقم (٤٠٠٤).
(٤) مسند أحمد: ١١٨٨.
(٥) السابق: نفسه. وقد مر تخريجها في موضع آخر في الكتاب.

وعن عَزْرَةَ بن قيس عن خالد بن الوليد قال: «كتب إليَّ أميرُ المؤمنين حين ألقى الشامَ بَوَنِيَةً[١] بَثْنِيَّةً وعسلاً ـ وشك عفان؛ مرة قال: حين ألقى الشام كذا وكذا ـ فأمرني أن أسيرَ إلى الهند، والهندُ في أنفسنا يومئذ البصرةُ، قال: وأنا لذلك كارهٌ، قال: فقام رجل فقال لي: يا أبا سليمان، اتق الله فإن الفتن قد ظهرت، قال: فقال: وابنُ الخطاب حي؟! إنما تكون بعده، والناس بذي بِلِّيان ـ أو بذي بليان ـ بمكان كذا وكذا، فينظر الرجل فيتفكر: هل يجدُ مكاناً لم ينزل به مثلُ ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشر؟ فلا يجده، قال: وتلك الأيام التي ذَكَرَ رسول الله ﷺ بين يَدَيِ الساعة أيامُ الهَرج، فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام»[٢].

وقد روى خالد أيضاً أن النبي ﷺ لم يُخَمِّسِ السَّلَبَ[٣]. وروى كذلك عنه لما استعمل عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح على الشام وعزل خالد بن الوليد قال خالد: «بُعِثَ عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٤].

هذا وقد روي عن خالد أحاديث أخرى رواتها ضعفاء، وفي بعضها نكارة لا تثبت عند العلماء، وليس من غرضنا في الكتاب أن نأتي على ذكرها.

---

(١) كذا في نسخة المسند، ط. بيت الأفكار الدولية: ١١٨٩. وهذا خطأ بل الصواب «بَوَانِيَه»؛ والبواني: واحدها بانيةٌ؛ وأصلها أضلاع الصدر؛ وقيل: الأكتاف. لسان العرب(بون). والبَثْنِيَّةُ: الزبدة. وقد ضبطت«الشام» بالفتح وهو خطأ، وألقى الشام بوانيه: إذا اطمأن المكان واستقر واجتمع أمره. لسان العرب(عصا). وقد تهيأ لي أن هناك حذفاً للفعل(وصار بثنية). وهكذا يستقيم المعنى قليلاً، ثم ثمة حذف آخر يدل على عزل خالد كما سيتضح فيما بعد.

(٢) المسند: نفس السابق.

(٣) السابق: نفسه.

(٤) السابق: نفسه.

الفصل الثالث

خالد و الشيخان

أبو بكر والمرتدون

كانت الردة قد بدأت أواخر عصر النبوة منذ العام التاسع للهجرة؛ وهو العام الذي دعي عام الوفود، وفيه انساقت أَزِمَّةُ الجزيرة العربية إلى يديه عليه الصلاة والسلام بقدوم الوفود عليه من شتى بقاع الجزيرة وأقطارها، ولم تظهر حركة الردة أثناءها على نحو علني واسع حتى كان العام العاشر للهجرة؛ عام حجة الوداع، وأطلت الفتنة برأسها ناراً تحت الرماد، وظهر الأسود العَنْسي، ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي؛ الأول في اليمن، والثاني في اليمامة، والثالث في ديار قومه بني أسد[1].

وتوفي عليه الصلاة والسلام بعد أن كان قد حدث برؤيا على منبره يذكر تأويلها بأنهما الكذابان: صاحب اليمامة، وصاحب اليمن، وتسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه سدة الحكم في الدولة الجديدة، وكان تخطيطه قمة الفهم والرؤيا والتكتيك العسكري، فقد بدا قائد دولة بصيراً بمدارك السياسة وتقلبات الناس، ضليعاً من أفكار مدرسة النبوة.

وقد رأى عمر بن الخطاب أن هؤلاء الناس مسلمون؛ فهم عصاة خارجون عن سلطان الدولة، بينما أوضح له أبو بكر أن مانعي الزكاة هم كمانعي الصلاة فقال: «والله لأقاتلن من فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»، وفي رواية: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى

---

(١) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، لعلي محمد الصلابي، الإسكندرية -دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م: ٢٣٦-٢٣٧.

رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»[١].

وهذا يوضح أن الزكاة حكم قطعي فمن ردها فقد كفر؛ بخلاف ما يرى عمر من أنهم عصاة وليسوا مرتدين، بل هم شرذمة مارقة تستحق التأديب، ولكن بعد أن ذكر عمر ذلك قال: «فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»[٢].

وقد جهز أبو بكر الناس للقتال في المدينة، ونظم الحرس على أنقاب المدينة يبيتون حولها حتى يدفعوا أي غارة قادمة، وجعل للحرس أمراء، وبعث إلى القبائل حوله يدعوهم إلى جهاد أهل الردة، وامتلأت المدينة خيلاً ورجالاً منهم، وحض الناس بكتبه التي أرسلها إلى الولاة في الأقاليم، وقام بمحاربة من كان قربه من المدينة يشكل خطراً كعبس وذبيان، وأخفق المرتدون في غزو المدينة، وكانت «ذو القَصَّة»[٣] القرية التي كان منها انطلاق الجيوش وتحركهم المنظم إلى مواطن الردة، وكانت الجيوش:

١ - جيش خالد بن الوليد إلى بني أسد ثم إلى بني تميم ثم اليمامة.

٢ - جيش عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة في بني حنيفة ثم إلى عمان والمَهَرة، فحضرموت فاليمن.

٣- جيش شُرَحبيل بن حَسَنَة إلى اليمامة في إثر عكرمة، ثم «حضرموت».

٤ - جيش طريفة بن حاجز إلى بني سليم من «هوازن».

٥ - جيش عمر بن العاص إلى قضاعة.

٦ - جيش خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

٧- جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

٨- جيش حذيفة بن مِحْصَن الغلفاني إلى عمان.

٩ - جيش عرفجة بن هرثمة إلى المهرة.

١٠ - جيش المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن (صنعاء فحضرموت).

---

(١) البداية والنهاية: ج٦، فصل في تصدي الصديق لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة. والعَنَاقُ: الأنثى من ولد المعز. والعقال: هو الحبل الذي يعقل به البعير.

(٢) السابق: نفسه.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٩.

١١ ـ جيش سويد بن مُقَرن إلى تهامة اليمن[١].

وجعل أبو بكر القائد العام لهذه الجيوش خالد بن الوليد سيف الله المسلول، والمدقق في المعارك يجد توزيعاً دقيقاً من أبي بكر لهذه الجيوش، وإدراكاً منه لما يدعى الجغرافيا السياسية، كما أنه يعلم تمام العلم مقدرة القبائل وما يجب أن يلاقي بها من جيوش قوات المرتدين، كما أن من البديهي أن تكون لديه هذه المقدرة على فهم طبيعة قوة خصمه وإستراتيجيته وهذا كان معروفاً عنه رضي الله عنه كما يتضح من مصاحبة النبي ﷺ له أثناء طلبه للنصرة.

مسير خالد إلى طليحة

ولما توجه خالد من «ذي القصة» فارقه الصديق وواعده أنه سيلقاه من تلقاء «خيبر» بمن معه من الأمراء، وأظهروا ذلك كي يرعبوا الأعراب، وأمر الصديق خالداً أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم إلى بني تميم بعد ذلك، وكان طُلَيحَةُ بن خُويلد في قومه بني أسد وفي غَطَفانَ، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بني جَدِيلة والغوث وطيء يستدعيهم إليه، فبعثوا منهم أقواماً بين أيديهم ليلحقوا على أثرهم سريعاً.

وكان الصديق قد ابتعث عديَّ بن حاتم قَبْلَ خالد قائلاً له: «أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم»، فذهب عدي إلى قومه بني طيء آمراً إياهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: «لانبايع أبا الفَصِيل أبداً»؛ يعنون أبا بكر رضي الله عنه، والفصيل: ولد الناقة، وعندها قال عدي: «والله ليأتينكم جيشه فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفَحل الأكبر».

ولم يزل عدي يلين لهم بالكلام ويفتل في الذُّروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد في الجند وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم وعُكَّاشة بن مِحْصَن طليعة، فتلقاهما طليحة وأخوه سَلَمَةُ فيمن معهما، وكانت مبارزة بينهم فقتل عكاشة جبال بن طليحة وأخذ ما معه، فحمل طليحة على عكاشة فقتله، ثم قَتَلَ هو وأخوه سَلَمَةُ ثابت بن أقرم، ولما جاء خالد بمن معه وجدوهما صريعين.

ومال خالد إلى بني طيء فخرج إليه عدي بن حاتم فقال: أَنْظِرني ثلاثة أيام، فإنهم استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجَّلَ منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن

(١) الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٢٤٢ وما بعدها.

تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار.

فلما كان بعد ثلاث جاء عدي في خمس مئة مقاتل ممن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بني جَدِيلة فقال له: «يا خالد، أجلني أياماً حتى آتيهم، فلعل الله أن ينقذهم كما أنقذ طيئاً، فأتاهم عدي، فلم يزل بهم حتى تابعوه، فجاء خالداً بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عدي خير مولود وأعظمه بركة على قومه رضي الله عنهم»[1].

بزاخة ونهاية بني أسد

ثم سار خالد حتى نزل بجبلي طيء: «أَجَأً» و «سَلمى» ، وهنالك عَبَّى جيشه والتقى وطليحة بمكان يقال له: «بُزَاخَةُ» ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وحضر طليحة بمن معه من قومه، ومن التف معهم وانضاف إليهم، وقد حضر معه عُيَيْنَةُ بن حِصْن الفَزَاري في سبع مئة من قومه «فَـزَارة»،واصطف الناس، وجلس طليحة متلففاً بكساء له يتنبأ لهم، ينظر ما يوحى إليه في زعمه، وطفق عيينة يقاتل حتى إذا ضجر من القتال جاء طليحة الذي كان على ما وصفنا فقال له: «أجاءك جبريل؟»

فقال: «لا»، ثم يرجع طليحة فيقاتل، ثم يرجع إليه كما كان في المرة الأولى، ويسأله كما سأله، فيجيبه كما أجاب في المرة الأولى.

فلما كانت المرة الثالثة سأله فأجابه بالإيجاب، قال عيينة: «فما قال لك؟» قال: «قال لي: إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه»، فقال عيينة: «أظن أن قد علم الله ـ سيكون ـ لك حديثاً لا تنساه»، ثم قال: «يا بني فزارة، انصرفوا»، وانهزم، وانهزم الناس عن طليحة الذي هرب مع امرأته «النوار» على فرس إلى الشام، وانفضت جموعه[2].

وأسر خالد عيينة بن حفص فأرسله إلى أبي بكر الذي حقن دمه، وأسلم وحسن إسلامه[3].

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ط(١)، القاهرةـ دار الريان، ١٩٨٨م: ٦/ ٣٢٢.(فصل في مسيرة الأمراء من ذي القصة على ما عوهدوا عليه).

(٢) السابق: نفسه.

(٣) السابق: نفسه.

كتاب أبي بكر إلى خالد

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه كتاباً جاء فيه: «ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جِدَّ في أمر الله ولا تَنِيَنَّ، ولا تظفرن بأحد قَتَلَ المسلمين إلا قَتَلْتَهُ ونكَّلت به غيره، ومَنْ أحببت ممن حادَّ الله أو ضادَّهُ؛ ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله»[١]. وجاء في رواية ابن كثير:

«... واتق الله في أمرك» و«جِدَّ في أمرك ولا تَلِنْ» ، و«لا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن يُرَى أن في ذلك صلاحاً فاقتله»[٢].

وأقام خالد ببزاخة شهراً يُصَعِّدُ ويصوبُ عنها، ويرجع إليها في طلب الذي وصاه به الصديق، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً يأخذ بثأر من قَتَلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من حرقه بالنار، ومنهم من رضَخَهُ بالحجارة، ومنهم من رمى به من حالق، ليجعلهم عبرة لمن يعتبر[٣].

مع أم زِمْل

وكان قد اجتمع طائفة كثيرة من الفُلاَّل يوم «بزاخَةَ» من بني عظفان من أصحاب طليحة بن خويلد، إلى امرأة يقال لها: «أمُّ زِمل»سلمى بنت مالك بن حذيفة في مكان يدعى «ظَفَرَ»؛ وهو اسم موضع قرب«الحَوْأَب» في طريق البصرة إلى المدينة، وكانت من سيدات العرب كأمها «أمّ قِرْفَةَ»، وكان يضرب بأمها المثل في الشرف لكثرة أولادها، وعزة قبيلتها وبيتها، فلما اجتمعوا إليها ذَمَّرَتهم[٤] لقتال خالد، فأهاجتهم لذلك، وانضاف إليهم آخرون من بني سُليم وطيء وهوازن وأسد، فصاروا جيشاً كثيفاً، واستفحل أمر هذه المرأة.

فلما سمع بهم خالد سار إليهم، واقتتلوا قتالاً كأشد ما يكون وهي راكبة على جمل أمها الذي يقال في أمره: من يَمَسَّ جملها فله مئة من الإبل، وذلك لعزتها، وهزمهم خالد، وعَقَرَ

---

(١) الطبري: ٣/ ٢٦٣. وفيه «تَبنيَنَّ» ولم يلتفت إليها المحقق، والصواب ما أثبتنا فهي من «وَنَى» الذي مضارعه«يَنِي»؛ أي لا تَفْتُرَنَّ ولا تتراخ.

(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٣.

(٣) السابق: نفسه.

(٤) ذَمَّرَ: حَضَّ وحرك.

جملها وقتلها، وبعث بالفتح إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه[١].

ما بعد بزاخة

لعل المرء حين يقف على تفاصيل الأحداث يلمس حُنكَةَ الصديق وتدبيره؛ فمن جهة أمر خالداً بأن يحارب قبيلة طيء في البدء بالرغم من أنها أبعد من تَجَمُّعِ طليحة، وفي ذلك خطة ناجحة أيما نجاح؛ إذ حالَ دون انضمام طيء إلى طليحة، واضطر من فكر أو كان فعلاً قد انضم إلى طليحة بالانكفاء عنه للدفاع عن قبيلته، ثم أظهر أبو بكر من جهة ثانية أنه خارج جهة خيبر ليلاقي خالداً ببلاد طيء، وهذا تكتيك بارع فعلاً، قد نجح في إثارة الرعب في قلوب القبائل المجاورة، ثم إن البراعة الكاملة عسكرياً تجلت في اختياره لخالد أبي سليمان الذي لم تنتكس له راية[٢].

وأيضاً فقد وقف عدي بن حاتم موقفاً رائعاً حين أبرز مقدرته ودربته وعلمه في النصح لقومه حيث أسرى بهم عن الارتداد عن الدين الحنيف، وجذبهم إلى صف خالد؛ وقد ظهرت عبقرية خالد وقدرته الحربية حين قال لعدي بن حاتم أن يطاوع قومه في محاربتهم لقيس في البدء؛ إذ رأى الطائيون أن يَكفُوا خالداً قيساً لأن بني أسد حلفاؤهم، فثار عدي وقال خالد: «والله ما قيسٌ بأهون الشوكتين، اصمُدوا إلى أي القبيلتين أحببتم»، وقال عدي: «لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى من قومي لجاهدتُهم عليه، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لِحِلْفهم؟ لا لَعَمْرُ الله لا أفعل»، فقال له خالد: «إن جهاد الفريقين جميعاً جهادٌ، لا تخالف رأيَ أصحابك، امض إلى أحد الفريقين، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط»[٣].

وبالرغم من وضع هذه الرواية إلا أن الواقع قد أثبت تدين عدي وحرصه على قومه كما مر معنا، ثم ثبت أن خالداً قد شايع عدياً على لينه مع الناس، ولم يتصرف دون تروٍ، بل إنه بالرغم من أخذه بأسباب الحزم لم يدع الفرصة تفوته بتوغل عدي في قومه وجرهم إلى صف الإسلام وأهله، وفي الإجمال كان اللين قبل القتال، وهكذا فقد نَجَّذت خالداً التجاربُ، وصهرته بُوْتقة الإسلام على أجلى ما يكون من الذهب البراق الذي زال عنه كل شائبة.

---

(١) السابق: نفسه.
(٢) الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٢٨٩-٢٩٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٥٥. وهذه الرواية فيها أبو مخنف، وهو متهم، وفيها شيخ أو أشياخ من طيء لا يدرى من هم.

فاجتمع في النهاية ما أشير إليه من تدبير الصديق، وقدرة خالد، وقوة طيء التي يحسب لها حساب بين قبائل العرب، فضلاً عن أن الواقع أن المجال قد فتح لطيء كي تقاتل بني قيس دون بني أسد كما أراد خالد لا عدي بن حاتم، وهذا التدبير كان له أثره في القتال، إذ لو أنها قاتلت حلفاءها لكان في ذلك تقصير شديد[1].

خبر سجاح

وكانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة؛ فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك إذ أقبلت سَجَاحِ بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية من الجزيرة؛ وهي من نصارى العرب قد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد تميم دعتهم إلى أمرها فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي وعُطارد بن حاجب وجماعة من سادات أمراء بني تميم، وتخلف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم.

على أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن عزمها وحرضها على بني يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وكان أن أخبرتهم بسجعها أن يهاجموا «الرِّباب»، ثم إنهم تعاهدوا على نصرها.

وقصدت سجاح اليمامة لتأخذها من مسيلمة، وخافها مسيلمة على بلاده إذ كان منشغلاً بقتال ثُمامة بن أُثال الذي ساعده عكرمة بن أبي جهل بجند المسلمين، وهم نازلون في بلاده يتربصون مقدم خالد.

وبعث مسيلمة إليها يستأمنها، وركب إليها في أربعين من قومه فاجتمعا في خيمة، فلما خلا بها وعرض عليها نصف الأرض فقبلت منه ذلك، وقد تساجَعَا بكلام بينهما، ثم عرض عليها الزواج، وعرض عليها أن يُصدِقها بأن تبعث إلى قومها عن طريق مؤذنها شبث بن ربعي أن ينادي في قومها بأن مسيلمة وضع عنهم صلاتين هما الفجر والعشاء الآخرة. ثم انثنت إلى بلادها راجعة، وكرت راجعة إلى الجزيرة حين بلغها مقدم خالد بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية الذي أجلاهم منها

(١) الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٢٩٣.

عام المجاعة[١].

خبر مالك بن نويرة وقصته مع خالد

وكان مالك بن نويرة أحد سادت تميم قد صانع سجاح حين قدمت من أرض الجزيرة، فلما اتصلت بمسيلمة لعنها الله ثم رحلت إلى بلادها ندم مالك على ماكان من أمره، وانثنى يتلوم في شأنه وهو نازل في مكان يدعى «البُطَاح» ، فقصدها خالد بجنوده خارجاً من «ظَفَر»، وكان يريد «البطاح»، وتخلفت الأنصار عن خالد قائلين: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عَهِد إلينا إن نحن فرغنا من «البزاخة» ، واستبرأنا بلادَ القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا»، فقال خالد : «إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلي أن أمضي، وأنا الأمير وإليَّ تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأتني له كتابٌ ولا أمرٌ، ثم رأيت فُرصة فكنت إن أعلمته فاتتني، لم أُعْلِمهُ حتى أنتهزها، كذلك لو ابتُلينا بأمر ليس منه عَهْدٌ إلينا فيه لم نَدَعْ أن نرى أفضلَ ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصدٌ إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أُكْرِهكُم»[٢].

ومضى خالد وندم الأنصار، ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به، فلما وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة بثَّ خالد السرايا في «البطاح» يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات إلا ما كان من مالك بن نويرة؛ فإنه قد تحير في أمره وتنحى عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت السَّرِيَّةُ فيهم فشهد أبو قتادة الحارث بن رِبْعي الأنصاري أنهم أقاموا الصلاة ، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا، وتقول الرواية: إن القوم كانوا في شدة البرد تلك الليلة، وكان الأسرى في وثاقهم، فنادى منادي خالد أن يُدفئوا أسراهم، فقدموا الأسرى فقتلوهم إذ ظنوا أنه أراد القتل، وكان ضرار بن الأزور قد قتل مالك بن نويرة[٣].

وثمة روايات أخر في هذا الشأن أظهرها مارواه ابن إسحاق أن خالداً استدعى مالك ابن نويرة وابنه، فذكر له في شأن الزكاة وأنها قرينة الصلاة فقال: «ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟»

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٧٦ـ٢٧٧.
(٣) تاريخ الطبري:٣/ ٢٧٩ـ٢٨٠.

فقال مالك ﷺ: «إن صاحبكم كان يزعم ذلك»، فقال خالد: «أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضِرَارُ، اضرب عنقه، فضربت عنقه[١]».

وغالب هذه المرويات في شأن قتل مالك معلول من جهة السند؛ فهي مرويات لا ترتضى، بل يستفاد أن مالكاً كان يماطل في شأن الزكاة، ويتلوى في أمرها، وكأنه لم يدفع الزكاة، وكانت الأمور تستدعي الحزم في مثل هذا الشأن الخطير، فمن ثم كان قتل مالك، وكان منعه للزكاة كافياً لقتله شرعاً؛ وقد صح عند بعض الفقهاء كالنووي في شرحه على صحيح مسلم أن بني يربوع قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوها إلى أبي بكر رضي الله عنه، فمنعهم مالك ابن نويرة من ذلك وفرقها[٢].

وروى ابن سعد عن الواقدي في حديث الردة: «فأوقع بهم خالد وقتل مالكاً، ثم أوقع بأهل بزاخة وحَرَّقهم لكونه بلغه عنهم مقالة سيئة؛ شتموا النبي ﷺ، ومضى إلى اليمامة، فقتل مسيلمة إلى أن قال: وقدم خالد المدينة بالسبي ومعه عشر من وفد بني حنيفة، فدخل المسجد وعليه قَبَاء عليه صدأ الحديد، متقلداً السيف، في عمامته أسهم، فمر بعمر فلم يكلمه، ودخل على أبي بكر فرأى منه كل ما يحب، وعلم عمر فأمسك، وإنما وجد عمر عليه لقتله مالك بن نويرة، وتزوج بامرأته»[٣].

وكان عمر قد حرض أبا بكر على عزل خالد، وكان عمر رضي الله عنه معاون أبي بكر ووزيره، وهذا يعني أنه نائب عن الخليفة، فكأنه الخليفة إلا أنه ليس بخليفة، وهو يستطيع أن يبرم أموراً يبرمها الخليفة إلا أنه يرجع فيها إلى الخليفة، والأصل كذلك، والمعاونةُ في الإسلام هي عقد تعني النيابة وعموم النظر في مسائل الدولة، وغلبت شخصية عمر في عصر أبي بكر على شخصية علي رضي الله عنهم علماً بأنه هو الآخر كان معاوناً إلى جانب عمر، حتى كان يقال لأبي بكر: «والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟» فيقول: «بل هو، ولو شاء كان»[٤].

وكان سبب قدوم خالد أن الصديق استدعاه بعد أن أكثر عليه عمر في القول بعزله،

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٣-٣٢٤.وانظر في السابق: ٣/ ٢٨٠.
(٢) انظر تحقيق المسألة في الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٣٠٠-٣٠١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٦.
(٤) كنز العمال، للمتقي الهندي، بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م: برقم (٩١٥١). وانظر أحاديث الباب كلها في الكتاب.

وكان عمر يقول: «إن في سيفه لَرَهقاً» ، فأجابه أبو بكر: «لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين»[١].

ولما دخل خالد المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من عمامة خالد التي غرز فيها النُّشاب المضمخ بالدماء، فَحَطَمَها عمر وقال: «أرياء قتلتَ امرءاً مسلماً ثم نَزَوْتَ على امرأته؟ والله لأرجمنك بالجَنَادل»[٢]، وخالد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر هو كرأي عمر حتى دخل إلى أبي بكر، فاعتذر إليه فقبل عذره وتجاوز له عن كل ما فعل[٣].

وهذا يذكرنا بما فعل خالد في بني جذيمة أيام النبي ﷺ كما تقدم، وعَـذَرَهُ عليه الصلاة والسلام في الإمرة علماً بأنه قال فيه ما قال من تبرؤه من فعله، ثم وَدَى الدماء التي سفكت.

وأما مسألة زواجه بزوجة مالك أم تميم التي كانت وضيئة فقد ثار لغط عند بعض الكتاب حول هذه القضية، وأبرزها بعضهم على نحو مغرض بأن ذكر أن خالداً تزوجها في نفس الليلة التي وقعت فيها في يد خالد، وهذا القول لا يعول عليه، ولم تشر إليه المصادر القديمة، وإن ما ينطبق على هذا الواقع أن أم تميم هذه هي سبية، فلا يعتد بزوجها المرتد، ولما وقعت في السبي اصطفاها خالد لنفسه فلما حلت بنى بها[٤].

ويذكر الشيخ أحمد محمد شاكر معلقاً على هذه المسألة: «إن خالداً أخذها هي وابنها مُلكَ يمين بوصفها سبية ؛ إذ إن السبية لا عدة عليها، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل، حتى تحيض حيضة واحدة، ثم دخل بها؛ وهو عمل مشروع جائز لا مَغْمَزَ فيه ولا مَطْعَنَ، إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك ابن نويرة مسلم، وأن خالداً قتله من أجل امرأته»[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢/ ١٦٠٦.
(٢) الجنادل: الحجارة.
(٣) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٦.
(٤) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٦. وانظر الأحكام السلطانية، للماوردي، محمد فهمي السرجاني، ١٩٧٨م: ٦٢
(٥) الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٣٠٢-٣٠٣.

موقعة اليمامة مع مسيلمة الكذاب

وظهر مسيلمة الكذاب في بني حنيفة؛ ولما رضي الصديق عن خالد وقبل اعتذاره فيما بلغه عنه بعثه إلى بني حنيفة لقتالهم، وعبَّى معه المسلمين، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصديق خالداً بسرعة لتكون رِدْءاً له من ورائه، وكان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة ابن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة لأنهم في نحو أربعين ألفاً من المُقَاتِلَةِ، ولما عَجِلَ عكرمة وناجزهم نُكِبَ، فانتظر خالداً، ولما سمع مسيلمة بمقدم خالد ضرب عسكره بعقرباء في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مُجَنِّبَتي جيشه المحكم بن الطفيل والرجَّال بن عَنْفُوة بن نهشل، وكان الرجال صديق مسيلمة الذي شهد له أنه رسول الله، وكانت فتنته أعظم من فتنة مسيلمة .

واقترب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنبتين زيداً وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة في الليل بنحو أربعين إلى ستين فارساً عليهم مُجَّاعة بن مُرَارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه، فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد اعتذروا إليه، فلم يصدقهم وضرب أعناقهم كلهم غير مجاعة إذ استبقاه رهينة في وثاقه لعلمه بالحرب والمكيدة.

ولما تواجه الجيشان نزل خالد بالمسلمين على كثيب مشرف على اليمامة حيث ضرب عسكره به، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، ومجاعة مقيد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد، فاصطدم المسلمون والكفار، فكانت جولةٌ وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد، وهموا بقتل أم تميم التي أجارها مجاعة، وقتل الرجال بن عنفوة في هذه الجولة على يد زيد بن الخطاب.

ثم دار قتال لا مثيل له بين العرب، وقتل ثابت بعد أن استمات في الدفاع راسخاً في محله على حفرة لقدميه في الأرض كان قد احتفرها ولبس الكفن وتحنط، وزادت الحماسة بين المسلمين، وحض الأكابرُ الأصاغرَ، وحمل خالد حتى تجاوز المسلمين يريد أن يبصر بمسيلمة ليقتله، ثم رجع إلى الصفين داعياً إلى البراز، ثم نادى بشعار المسلمين: «يا محمداه»، ولم يبرز إليه

أحد إلا أجهز عليه، وكان كالأسد الكاسر، ثم دارت رحى الحرب، واقترب خالد من مسيلمة فكلمه وعرض عليه النَّصَفَةَ والرجوع إلى الحق، فألوى مسيلمة ولم يلتفت.

وانصرف عنه خالد، وميز بين المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يُؤْتَون، وصبر الصحابة رضوان الله عليهم صبراً جميلاً، وصمدوا لنحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، فولى الكفار الأدبار، وطفقت السيوف المسلمة تأخذهم في أقفائهم وتحتز رقابهم حتى ألجأتهم إلى «حديقة الموت» التي أشار عليهم محكم اليمامة ـ وهو محكم بن الطفيل ـ بدخولها، فدخلوها وفيها مسيلمة، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فانتحى له بسهم أصابه في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة.

وقال البراء بن مالك: «يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة»، فاحتملوه فوق الترس ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يعملون في المرتدين أسيافهم، وأدرك وحشي بن حرب قاتل حمزة مسيلمة فرماه بحربته فنفذت من مسيلمة إلى الجانب الآخر، وسارع سِمَاك بن خَرَشَةَ أبو دُجَانة إليه فضربه بالسيف فسقط لعنه الله، وقد عرف بين القتلى حين استعرضهم خالد[1]..

مخادعة مجاعة لخالد

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة قائلاً: «إنها ملأى رجالاً ومقاتلة، فهلم فصالحني عنها»، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كَلُّوا من تتابع الحرب والقتال، فقال: دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح، ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذه من السبي، واستاق الباقين إلى الصديق[2].

---

(١) البداية و النهاية:٦/ ٣٢٩.

(٢) السابق: نفسه.

تكتيك خالد في اليمامة

لقد كان خالد بارزاً في خططه العسكرية؛ وكان لا يستهين بعدوه، وفي ميدان المعركة كان دائماً على حذر وترقب للمعمعة يتفحص أساليب عدوه وخططه، ولم يبت إلا على تعبئة، كما أنه لم يخف عليه من أمر عدوه شيء.

وقد جعل طليعته مكنف بن زيد الخيل وأخاه حريثاً لما يدعى بالاستطلاع في عصرنا؛ وذلك كي يجمعا له المعلومات اللازمة للمعركة[١].

وكان حامل الراية في المعركة عبد الله بن حفص بن غانم، ثم تحولت إلى سالم مولى أبي حذيفة، والناس براياتهم، فإذا زالت زالوا كما تقول العرب، وقدم خالد في المعركة شرحبيل بن حسنة، وقسم الجيش أخماساً؛ على المقدمة خالد المخزومي، وعلى الميمنة أبو حذيفة، وعلى الميسرة شجاع، وفي القلب زيد بن الخطاب، كما جعل أسامة بن زيد على الخيالة، ووضع الظعائن في المؤخرة التي فيها الخيام والنساء، وكان هذا الترتيب الأخير قبل المعركة[٢]!

كتاب خالد بالصلح إلى مجاعة

وقد كتب خالد كتاباً بالصلح لمجاعة جاء فيه: «هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة ابن مرارة وسَلَمَة بن عمر وفلاناً وفلاناً؛ قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحَلْقة والكُراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يُسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، وذمة المسلمين على الوفاء»[٣].

محاولة قتل خالد

كان مجاعة قد أقنع بني حنيفة بأن يعصوا رأي سلمة بن عمير الذي أهاب بهم أن يتحصنوا في الحصون فهي حصينة، والطعام وافر وقد حضر الشتاء، وغضب سلمة فيما يظهر، وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد، وخالد في عسكره، فرغب سلمة

---

(١) الانشراح ورفع الضيق:٣٢٦.

(٢) السابق:٣٢٧.

(٣) تاريخ الطبري:٣/ ٢٩٨ـ٢٩٩. والصفراء: الذهب. والبيضاء: الفضة. والحلقة: الدروع. والكُراع: السلاح. والحائط: البستان.لسان العرب(صفر) و(كرع) و (حوط).

إلى مجاعة أن يستأذن له على خالد، فلما أذن له وكان مشتملاً على سيف يهم أن يفتك بخالد، قال خالد: «من هذا المقبل؟» قال مجاعة: «هذا الذي كلمتك فيه، وقد أذنتَ له»، فأمر خالد بأن يُخْرَجَ، فأخرجوه عنه.

ولما فتشوه وجدوا معه السلاح، فلعنوه وشتموه وأوثقوه، وقالوا له: «أردت أن تهلك قومك، وأيم الله لو أن خالداً علم أنك حملت السلاح لقتلك، وما نأمنه إن علم ذلك أن يقتلك وأن يقتل الرجال ويسبي النساء بما فعلت، ويحسَب أن ذلك عن مَلأٍ منا»، فأوثقوه وجعلوه في الحصن، وتتابع بنو حنيفة على البَرَاء مما كانوا عليه، وعلى الإسلام، وعاهدهم سلمة على ألا يُحْدِثَ حَدَثاً ويُعفوه، فأبوا ولم يثقوا بحماقته أن يقبلوا له عهداً، فأُفْلِتَ ليلاً وعَمَدَ إلى عسكر خالد فصاح به الحَرَسُ، وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه في بعض الحوائط، فشد عليهم بالسيف، فاكتنفوه بالحجارة، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه، فسقط في بئر فمات[١].

زواج خالد وتعنيف أبي بكر له

وقد طلب خالد إلى مجاعة أن يزوجه ابنته، فقال له مجاعة: «مهلاً، إنك قاطع ظهري وظَهْرَكَ معي عند صاحبك»، فقال خالد: «أيها الرجل، زوجني»، فزوجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب خالد كتاباً فيه تعنيف، وفيه يقول أبو بكر رضي الله عنه: «لعمري يابن أم خالد، إنك لفارغ تَنْكِحُ النساء وبِفِنَاء بيتك دمُ ألفٍ ومئتي رجل من المسلمين لم يَجْفُفْ بعد...»، قال: فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأُعَيسر؛ يعني عمر بن الخطاب[٢].

فتوح العراق

بعد حروب الردة جهز الصديق الجيوش للفتوحات؛ فعبى جيشين لفتح العراق، وانضم إلى خالد بن الوليد المثنى بن حارثة الشيباني بالعراق، وكان خالد باليمامة فكتب إليه الصديق يأمره أن يغزو العراق من جنوبه الغربي، وأمره: «أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفَرْجِ الهند ـ وهي الأُبُلَّةُ ـ وتَأَلَّفْ أهلَ فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم»[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٩٩ـ٣٠٠.

(٢) السابق: ٣/ ٣٠٠.

(٣) السابق: ٣/ ٣٤٣ والأبلة: على شط العرب في زاوية الخليج الذي يدخل في مدينة البصرة؛ وهي أقدم من البصرة، وكانت بها مسالح كسرى.

وكان ثمة جيش آخر بقيادة عياض بن غَنْم وكان بين «النِّباج»[1] والحجاز، وكان أبو بكر قد كتب إلى خالد لما فرغ من اليمامة قائلاً: «إن الله فتح عليك، فَعَارِقْ حتى تلقى عِيَاضاً»[2]، كما كتب إلى عياض قائلاً: «سِرْ حتى تأتي المُصَيَّخَ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارقْ حتى تلقى خالداً، وائذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بِمُتَكَارِهٍ»[3]، وأمد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو، وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحمري؛ وذلك لما طلبا منه المدد، وكتب إليهما أن: «استنفرا من قاتل أهلَ الردة، ومن ثبت عليه الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحدٌ ارتد حتى أرى رأيي»[4]، فلم يشهد تلك الوقائع مرتد.

ولما طلب أبو بكر ما طلب منهما في كتابه: أن يدخل خالد من أسفل العراق وعياض من أعلاها، طلب أبو بكر أيضاً أن يستبقا إلى الحيرة؛ فأيهما سبق إليها صاحبه فهو أمير على صاحبه، وقال: «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس، وأَمِنْـتُما أن يُؤْتىَ المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما رِدْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارَهم ومستَقَرَّ عزهم؛ المدائن»[5].

خالد والقُريات

وكان خالد قد نزل بقُريات من السَّوَاد يقال لها: «بانِقْيا» و«باروسما» و «أُلَّيس» فصالحه أهلوها، وكان الذي صالحه عليها يقال له: «ابن صَلوبا» في سنة / ١٢هـ/ ، وقد قبل خالد منهم الجزية وكتب لهم كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادي ـ ومنزله بشاطىء الفرات ـ إنك آمن بأمان الله، وقد أعطيتَ عن نفسك وعن أهل خَرجك وجزيرتك ومن كان في قريتيك ـ بانقيا وباروسما ـ ألفَ درهم، فقبلتُها منك، ورضي من معي من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله، وذمة محمد ﷺ، وذمة المسلمين على ذلك، وشهد هشام بن الوليد»[6].

---

(١) النباج: قرية في بادية البصرة في منتصف الطريق بين مكة والبصرة.
(٢) السابق: ٣/ ٣٤٦.
(٣) السابق: نفسه.
(٤) السابق:٣/ ٣٤٧.
(٥) السابق: نفسه.
(٦) السابق:٣/ ٣٤٤.

ثم أقبل خالد بمن معه حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشرافهم مع قَبيصة بن إياس بن حية الطائي الذي كان قد أمَّره كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال له خالد ولأصحابه: «أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين؛ لكم مالهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرصُ على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم»[1].

فقال له قبيصة بن إياس: «مالنا بِحَرْبِكَ من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية»، فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أول جزية وقعت بالعراق، هي القُرَيات التي صالح عليها ابنَ صَلُوبا[2].

وكذلك فقد كان خالد قد سار وعرض له صاحب «أُلَّيس» المدعو «جابان»، فبعث إليه المثنى بن حارثة الذي هزمه وقتل جُلَّ أصحابه إلى جانب نهر يدعى «نهر دم» الذي سمي كذلك بسبب تلك الوقعة، وصالح أهل «أليس» حتى دنا من الحيرة، وخرجت إليه خيول «آزاذبه»صاحب خيل كسرى التي كانت في مسالح ما بينه وبين العرب، فلقوهم بمجتمع الأنهار، وتوجه المثنى إليهم فهزمهم[3].

وقد كان كتاب خالد إلى المدائن فيه: «من خالد بن الوليد إلى مَرَازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فالحمد لله الذي فَضَّ خَدَمَتكم، وسَلَبَ مُلككم، ووَهَّنَ كيدَكم، وإنه من صلى صلاتَنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له مالَنا، وعليه ما علينا، أما بعد، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليَّ بالرُّهُن، واعتقدوا مني الذمةَ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون الحياة»[4]. وسنذكر فيما يأتي بعض معارك خالد قبل الحيرة، ثم نشير إلى بعضها بعد الحيرة على الترتيب.

---

(١) السابق: نفسه.

(٢) السابق: نفسه. ويتبين لنا أن وزن الدرهم كان/ ٤،٢٥/غ من الفضة حتى عهد عمر صار/ ٣،١١/غ في عهده رضي الله عنه. والدينار: كذلك بوزن المثقال / ٤,٢٥/غ من الذهب.

(٣) السابق: ٣٤٥.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٦. والمزربة: جمع مَرْزُبان؛ وهو رتبة عالية عسكرياً عند الفرس، وتعني حامي الحدود، والجمع مَرَازِب ومرازبة. معجم المعربات الفارسية لألتونجي: ١٤٤. وفض خدمتكم: أي فرق جماعتكم. لسان العرب(فضض).

١ - بين خالد وهرمز في ذات السلاسل

وكان خالد قد فرق أوان خروجه من اليمامة جيشه فرقاً ثلاثاً، ولم يحملهم على طريق واحدة، فَسَرَّحَ المثنى قبله بيومين ودليله «ظَفَر» ، وسرح عديَّ بن حاتم وعاصم بن عمرو، ودليلاهما: مالك بن عبَّاد، وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ودليله رافع، فواعدهم جميعاً «الحَفِير» ليجتمعوا به وليصادموا به عدوهم، وكان فرج الهند أعظم فروج فارس شأناً وأشدها شوكة، وكان صاحبه هو «هُرْمُز» الذي كتب إليه خالد، فكتب «هرمز» بالخبر إلى شِيْرَى بن كسرى وإلى أَرْدَشير بن شِيْرَى، وجمع جموعه، ثم تَعَجَّل إلى كاظمة في سَرَعان أصحابه ليتلقى خالداً، وكان على مجنبته «قُباذ» و «أنوشَجان» من بيت المُلك، وقد اقترن الجيش في السلاسل لئلا يفروا.

وكان «هرمز» هذا من أخبث الناس طوية وأشدهم كفراً، وكان شريفاً في الفرس، وكان الرجل كلما ازداد شرفاً ازداد في حِلْيته، فكانت قَلَنْسُوَةُ هرمز بمئة ألف، وقدم خالد ومن معه - ومقدارهم ثمانية عشر ألفاً - فنزل تجاهَهُم على غير ماء، فشكا أصحابه ذلك فأشار عليهم أن: «جالدْهم حتى تجلوهم عن المياه، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين»، فلما استقر المنزل بالمسلمين وهم ركبان على خيولهم بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غُدران من ماء، فقوي المسلمون بذلك وفرحوا فرحاً شديداً.

فلما تواجه الصفان وتقاتل الفريقان ترجل هرمز ودعا إلى النزال، فترجل خالد وتقدم إلى هرمز، فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وجاءت حامية هرمز فما شغله عن قتله، وكانوا قد تبعوا خالداً، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز فأناموهم، وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، واستحوذ المسلمون على متاعهم وسلاحهم فبلغ حمل ألف بعير، وسميت هذه الغزوة غزوة ذات السلاسل لكثرة من سُلسل بها من فرسان فارس.

وأفلت «قباذ» و «أنوشجان»، ولما رجع الطَّلَبُ نادى منادي خالد بالرحيل، فسار الناس وتبعته الأنفال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم في البصرة، وبعث بالفتح والبشارة إلى أبي بكر، وبعث بفيل جعلت نسوة المدينة يعجبن من خلقه، وقد رده الصديق، وبعث أبو بكر إلى خالد لما بلغه الخبر فَنَفَّلَهُ سَلَبَ هرمز، وكانت قلنسوته التي ذكرناها مرصعة بالجواهر، وبعث خالد الأمراء يميناً وشمالاً يحاصرون حصوناً هنالك ففتحوها عَنْوَةً وصلحاً، وغنموا

منها مغانم جمة، ولم يكن خالد يتعرض للفلاحين من لم يقاتل منهم ولا لأولادهم، بل للمقاتلة من أهل فارس.

٢- وقعة المذار

ثم كانت «المذار» في صفر من العام نفسه؛ وتدعى «الثِّنْي»؛ وهو النهر؛ وكان سببها أن هرمز قد كان كتب إلى أردشير وشيرى بقدوم خالد نحوه من اليمامة،فبعث كسرى بمدد له مع أمير يدعى «قارن بن قريانس»، فلم يصل إلى «هرمز» حتى كان من أمره مع خالد ما تقدم، وفر من فر من الفرس فتلقاهم «قارن» فالتفوا عليه وتلاوموا واتفقوا أن يرجعوا لقتال خالد، فساروا إلى «المذار»، وعلى مجنبتي «قارن»: «قباذ» و«أنوشجان».

فلما انتهى الخبر إلى خالد قسم ما كان معه من أربعة أخماس غنيمة يوم ذات السلاسل، وأرسل إلى الصديق بخبره مع الوليد بن عقبة، وسار خالد بمن معه من الجيوش حتى نزل في «المذار» وهو على تعبئته، فاقتتلوا قتال حَنَقٍ وحفيظة، وخرج «قارن» يدعو إلى البراز، فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من الأمراء، فقتل معقل بن الأعش ابن النباش قارناً، وقتل عدي بن حاتم «قباذ»، وقتل عاصم «أنوشجان»، وفرت الفرس، وركب المسلمون في ظهورهم فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفاً، وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه.

وأقام خالد بالمذار وسلم الأسلاب إلى من قَتَل، وكان «قارن» قد انتهى شرفه في أبناء فارس، وقسم خالد الغنائم، وبعث بالبشارة إلى أبي بكر، ووضع الجزية، وأقام يتجسس الأخبار(١).

٣- وقعة الولجة

وقد وصل نبأ نكبة الفرس في «المذار» إلى أسماع كسرى الذي ابتعث «الأَنْدَرْزَغَر» على رأس جيش كبير، مردفاً إياه بجيش آخر مع أمير يقال له: «بَهمن جاذَوَيهِ»، وكان «الأندرزغر» من أبناء السواد ومولده بالمدائن ونشأته بها، فساروا حتى بلغوا مكاناً يقال له: «الوَلَجة»، فسمع بهم خالد فسار بمن معه من الجند، وأوصى من استخلفه في أسفل دجلة بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو«الوَلَجة»، ونزل حيث نشب قتال شديد أعظم من

---

(١) تاريخ الطبري:٣/ ٣٥١-٣٥٢.

قتال «الثِّني»(١).

وقد كان خالد قد شرع يعد خطة الهجوم للتنفيذ؛ ولكي يؤمن خطوطه الخلفية أمر سويد بن مُقَرِّن بلزوم «الحفير»، وتحرك بجيشه حتى وصل «الولجة»، وبعد أن استطلع المنطقة تماماً وجد أن ميدان المعركة أرض مستوية، وواسطة تصلح للقتال وتسمح بحرية الحركة، ولما كان خالد قرر أن يهاجم قوات الفرس من جهات ثلاث، فقد نفذ خطته وبعث بفرقتين كي تهاجما حشود الفرس من الخلف ومن الجانبين، وهكذا كانت المعركة.

واشتد خالد في هجومه من المقدمة ، وانقض الكمينان في الوقت المناسب على مؤخرة جيش العدو الذي أنزلت به هزيمة منكرة، ففر «الأندرزغر» مع عدد من رجاله، وسرعان ما ماتوا من العطش، وقد خطب خالد في الجيش خطبة تشحذ الهمم وتقوي العزائم، وتجعل نفوس الجيش تواقة إلى بلاد العجم، زاهدة في بلاد العرب، فقال: «ألا ترون إلى الطعام كرفْغ التراب؟! وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارعَ على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولِّي الجوع والإقلال مَن تولاه ممن اثَّاقَلَ عما أنتم عليه»(٢).

استكمال الفتح في العراق

وخاض خالد معركة «أُلَّيس» التي هي على صلب الفرات بعدها كما أشرنا في البدء، ثم خاض في صفر «أَمْغِيْشيا» التي أصابوا فيها مغانم كثيرة لا تحصى عدداً(٣)، ثم كان يوم «المَقْر» و «فمِ فُرَاتِ بادَقْلَى»(٤)، ووصل إلى «الحيرة» التي أضحت مركزاً إستراتيجياً عسكرياً للجيش الإسلامي، ومما كان من أمر الصلح كتاب كتبه خالد هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بُهَيش وصَلُوبا بن نسطونا، لكم الذمة وعليكم الجزية، وأنتم ضامنون لمن نُقِّبتُم عليه من أهل البِهْقُباذ الأسفل والأوسط ـ وفي رواية: وأنتم ضامنون جزيةَ من نقبتم عليه ـ على ألفي ألف ثقيل في كل سنة؛

(١) السابق:٣/ ٣٥٣.
(٢) تاريخ الطبري:٣/ ٣٥٤.وانظر الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٢٧٨ـ٢٧٩. والرَّفْغُ: يعني به الخصب والسعة؛ وأصله ألأم الوادي وأخبثه وشره تراباً. انظر القاموس المحيط (رفغ).
(٣) تاريخ الطبري:٣/ ٣٥٨.
(٤) السابق: ٣/ ٣٥٩ وما بعدها.

عن كل ذي يد سوى ما على بانِقْيا وبَسْما، وإنكم قد أرضيتموني والمسلمين، وإنا أرضيناكم وأهلَ البِهْقُباذ الأسفل؛ ومن دَخَلَ معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومَنْ مال ميلهم، شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحِمْيَري، وبشير بن عبيد الله بن الخَصَاصيَّة، وحنظلة بن الربيع، وكُتِب سنة اثنتي عشرة في صفر»[1].

وخرج خالد إلى الأنبار «ذات العيون»، و «كَلْواذَى»، وقصد «عين التمر» ، وكانت «الوقعة»، ثم كانت وقعة «حُصَيد»، ثم «الخَنَافس»، ثم «مُصَيَّخ بني البَرشاء»، ثم «الثَّنِيُّ» و«الزُّمَيل»، ثم «الرُّضاب» و «الفِراض»[2]، وهكذا استتم أمر الحيرة. وبدت الطريق سالكه للفتوح القادمة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حِجة خالد

وخرج خالد حاجاًمن «الفراض» لخمس بقين من ذي القعدة في كتمان لأمره مع عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسَّمْت؛ أي اهتدى إلى الطريق بالظن، فكان نجاحه من غير دليل أعجب العجب، مع صعوبة بالغة ومشقة زائدة، وغاب غيبة يسيرة عن الجند، ولما عاد لم يكن كثيرون يعلمون بأمر حجته، ثم علم أبوبكر بعد ذلك فعاقبه بأن صرفه إلى الشام، وقال له في كتاب بعث إليه: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت؛ فإنه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشَّجَى من الناس نَزْعَك، فَلْيَهْنِئْكَ ـ أبا سليمان ـ النِّية والحُظوةُ، فأتمم يتمم الله لك، ولا يَدخُلَنَّكَ عُجْبٌ فتخسرَ وتُخْذَل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل، فإن الله له المَنُّ، وهو ولي الجزاء»[3].

وهذه كلمات بليغة وموعظة حسنة من الصديق الذي نبهه رضي الله عنه إلى أنه ينبغي ألا يدع الجيش ولو للحج، ومع ذلك هنأه على ما أقدم عليه في هذا الوضع إذ حرص على الحج، وهذا مع ما ناله من الحظوة في الفتوح والجهاد من الأجر العظيم، وهو يسأله ألا يغتر بعمله وألا يركن إلى ما صار إليه، وإن دَاخَلَه في نفسه عُجبٌ فاستحسن عمله فإنه سيخسر ويذل

(١) السابق: ٣/ ٣٦٨ـ٣٦٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٣ـ٣٨٤.
(٣) السابق: ٣/ ٣٨٤ـ٣٨٥.

وسيخذله الله فيما هو مقدم عليه، وكان المثنى بعد خالد قد قرع «بابل» وأبواب «المدائن».

خالد والشام

يتلخص الموقف في بلاد الشام أن الجيوش التي بعثها أبو بكر كانت تحارب جيوش الروم، والروم دولة قوية تعد الند لدولة فارس آنذاك، وكلتا الدولتين كانتا تتقاسمان العالم آنذاك، وتتحاربان على مناطق النفوذ، وتكون الحرب سجالاً؛ وقد أرسل أبو بكر جيوشاً عديدة ؛ فقد عقد الألوية لأربعة منها لفتح الشام؛ وهي:

١ - جيش يزيد بن أبي سفيان الذي كانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الأربعة، وكان ثلاثة آلاف مقاتل ثم عززه الصديق حتى بلغ عدده سبعة آلاف.

٢-جيش شرحبيل بن حسنة الذي حدد له أبو بكر ثلاثة أيام لمسيره بعد مسير جيش يزيد، وكان جيشه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف، وأمره الصديق بالسير إلى تبوك والبلقاء ثم بصرى.

٣-جيش أبي عبيدة بن الجراح، وكان بين ثلاثة آلاف إلى أربعة، وهدفه حمص.

٤- جيش عمرو بن العاص، وكانت وجهته فلسطين، وكان تعداده مابين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مجاهد[1].

وكان للروم في الشام جيشان كبيران: أحدهما في فلسطين، والآخر في أنطاكية، وهما يتمركزان في مواضع ستة على النحو التالي:

١ - أنطاكية: وهي عاصمة الشام في العهد الرومي.

٢-قِنَّسرين: الواقعة بين حماة وحلب على مسافة / ٢٥كم/ جنوبي غربي حلب؛ وهي حدود بلاد الشام التي تحاذي فارس في الشمال الغربي.

٣- حمص : التي يمتد نفوذها إلى تدمر وصحراء الشام؛ وهي حدود بلاد الشام التي تحاذي فارس من الشمال الشرقي.

٤- عَمّان: قاعدة البلقاء، وفيها قلعة حصينة.

٥- أجنادين: وهي قاعدة الروم العسكرية في جنوبي فلسطين؛ وتبعد عن «حيفا» ثلاثة عشر كيلوا متراً.

---

(١) الانشراح ورفع الضيق للصلابي: ٤١٦-٤٢٥.

وأما مقر القيادة العامة فهي «أنطاكية» أو «حمص»، وعندما شهد قائد الروم هرقل الذي كان يشرف على الموقف بنفسه في «إيلياء» توغل الجيوش الإسلامية أصدر أوامره إلى قواته بالتوجه لتدمير الجيوش هذه، وكانت خطته في مواجهة الجيوش الإسلامية على النحو التالي:

_ يتراجع الروم أمام المسلمين ويتخلون لهم عن الحدود الشامية الحجازية.

_ تتجمع وحدات الجيش الأول في فلسطين بعد تقريرها بقيادة «سرجون».

_ تتحرك هذه الجيوش وتهاجم أمراء الإسلام الأربعة الواحد إثر الآخر؛ وذلك بغية الانفراد بكل جيش لتسهيل تصفيته، وعلى أساس هذه الخطة التي وضعها هرقل تحركت جيوش الروم على النحو الآتي:

_ توجيه أخيه «تذارق» في تسعين ألفاً للقضاء على جيش عمرو بن العاص.

_ توجيه ابن «توذر» إلى يزيد بن أبي سفيان.

_ ثم توجيه «الفيقار بن نسطوس» في ستين ألفاً إلى جيش أبي عبيدة.

_ توجيه «الدراقص» نحو شرحبيل بن حسنة[1].

وكان المسلمون قد حازوا على تفاصيل أوضاع هذه الجيوش وتحركاتها، وقد عانوا في الجهاد بلاء عظيماً، كما أن خالداً حين قدم كان الوضع قد أصبح معقداً من الناحية العسكرية ومن الناحية الإستراتيجية، وكانت قيادة الجيوش الإسلامية في الشام تتابع تطور حركة الجيوش الرومانية، وشعر القادة ثمة بخطورة الموقف، فعقدوا مؤتمراً في «الجولان»، وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة شارحاً له الموقف، وفي الوقت نفسه قرروا الانسحاب من كافة الأراضي التي تم فتحها، وتجمعوا في مكان واحد لإحباط خطة الرومان، وإجبارهم على خوض معركة الفصل بحيث تخوضها كل الجيوش الإسلامية.

وكان عمر وبن العاص قد أشار على القادة أن يكون التجمع في اليرموك، وجاء رأي الصديق مطابقاً لرأي عمرو بن العاص في اختيار مكان التجمع، وتم الاتفاق على إتمام الانسحاب دون أن يكون ثمة اشتباك مع العدو، وانسحب أبو عبيدة من حمص، وشرحبيل من الأردن، ويزيد من دمشق، وشرع عمرو في الانسحاب من فلسطين بالتدريج، ولكنه لم يستطع أن ينسحب منها حتى أنجده خالد قبل اليرموك؛ فظل يناور في «بئر السبع» لمتابعة الروم له،

(١) السابق: ٤٢٦_٤٢٧.

وكان بعد هذا الهجومُ المضاد[1].

معركة أجنادين

وكان الهجوم المضاد متجلياً في معركة «أجنادين»؛ وتتلخص القصة في أن خالداً وصل إلى الشام وفتح بصرى واجتمع بقادة المسلمين الثلاثة: أبي عبيدة، ويزيد، وشرحبيل، وباطلاعه على الموقف وتفحصه له بأدق التفاصيل المعروضة أمامه، كما أنه على اطلاع بموقف عمرو بن العاص الذي كان ينسحب بمحاذاة ضَفَّة نهر الأردن كي يلتقي بجيوش المسلمين محاذراً الاشتباك مع العدو، علماً بأن قائد الجيش الرومي الذي كان يتعقبه قد حاول جره إلى الاشتباك في معركة فاصلة، وكان عمرو على دراية بخطورة هذا الاشتباك إذ كان يزيد جيش الروم على جيشه عدداً، وبعد هذا الاطلاع من خالد ودراسته للموقف العسكري رأى أنه بين خيارين:

فإما أن يهرع إلى عمرو بن العاص وينضم إلى جيشه لخوض المعركة الفاصلة، فيتم القضاء على القوة الكبرى للروم مما يساند الموقف الإسلامي العسكري، ويصون بهذا خط الرجعة ويحمي جناحه الأيسر، ويثبت أقدام المسلمين في فلسطين، وإما أن يتلبث موعزاً إلى عمرو أن يقوم بالانضمام إليه، ثم يترقب قوات الروم القادمة نحوه لخوض المعركة الفاصلة.

وفضل خالد الخيار الأول الذي يكون فيه دحر الروم حافظاً لخط الرجعة للمسلمين ويعزز مركزهم، ثم يجعلهم في موقف التهديد للروم بحيث يتوقع الروم منهم حركة التفاف من خلفهم؛ مما يضطرهم ـ أي الروم ـ إلى الأخذ بتدابير للحماية خاصة تشغل قسماً من قواتهم؛ إذ يؤول بهم إلى موقف الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين.

وهكذا انحدر خالد من اليرموك إلى سهل فلسطين بعد ما أصدر لعمرو أمراً بأن ينسحب مستدرجاً جيش الروم حتى يصل جيش خالد فيطبقا عليه، وهكذا ارتد عمرو إلى «أجنادين».

وعندما وصل جيش خالد كان قوام الجيش الإسلامي قد أضحى ثلاثين ألفاً تقريباً، وكان وصوله ـ أي خالد ـ في الوقت المضبوط المناسب، وانقض خالد بجيشه الرئيسي بعد أن التحم عمرو بالروم، وجرت معركة عنيفة، كتب الله فيها النصر بمهارة عمرو وتدبير خالد؛ إذ

---

(١) السابق: ٤٣١ـ٤٣٢.

تم توجيه قوة اقتحامية اخترقت صفوف العدو حتى وصلت إلى قائد الروم فجندلوه صريعاً، وهكذا انهارت مقاومة الروم، ولاذوا بالفرار[١].

وحلت الطامة الكبرى حين سمع «هرقل» بأخبار الوقعة؛ إذ شعر بالأسى لما آل إليه الأمر، وبالطبع كانت «أجنادين» أولى المعارك الكبرى في بلاد الشام، وكتب خالد إلى أبي بكر يقول: «لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله، من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين، أما بعد، سلام عليكم، فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو، أما بعد، فإني أخبرك ـ أيها الصديق ـ أنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعاً جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صُلُبَهم ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله: لا يفرون حتى يُفْنونا أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله، متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فَجٍّ وشِعب وغائط، فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه، وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٢].

معركة اليرموك

بعد «أجنادين» تجمع المسلمون في اليرموك كما أمر الخليفة الصديق، وتحركت جيوش الروم يقودها «تيدور» ونزلت في منزل واسع الطعن، واسع المَطْرَد، ضَيِّق المَهْرَبِ، وتحشدوا في «الواقوصة» قرب اليرموك.

وقدر عدد المسلمين بين أربعين ألف مقاتل إلى خمسة وأربعين يقودهم خالد بن الوليد، وأما الروم فكان عددهم مقدراً بـ/ ٢٤٠/ ألفاً يقودهم «تيدور».

وعسكر المسلمون في «اليرموك»، واجتمعت الروم على الضفة الجنوبية للنهر مع أمرائهم، ورأى عمرو بن العاص أن الروم قد حُصروا.

وخرج خالد بن الوليد بأسلوب جديد هو الكراديس[٣]؛ فقد عبأ جيشه وقسمه إلى أربعين كُرْدوساً كما تدل الروايات في أكثر العدد، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان،

---

(١) السابق: ٤٦٣ ـ ٤٣٨.

(٢) السابق:٤٣٧ـ٤٣٨. والغائط: المتسع من الأرض مع طمأنينة. والشعب: الطريق في الجبل أوما انفرج بين الجبلين. لسان العرب (غوط) و (شعب).

(٣) الكراديس: جمع كُردوس؛ وهو القطعة من الخيل، وشبهت الكراديس برؤوس العظام الكثيرة؛ إذ كل عظم تام ضخم فهو كردوس، وكذلك العظم الذي كثر لحمه عليه. لسان العرب(كردس).

وجعله على فرق ثلاث: الميمنة، والميسرة، والقلب، فجعل أبا عبيدة على كل كراديس القلب، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على كراديس الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على كراديس الميسرة. كما جعل على الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض[1] عبد الله بن مسعود.

وكانت فرقة القلب مؤلفة من /١٨/ كردوساً، والميمنة من عشرة كراديس، والميسرة مثلها.

وفرقة الطليعة مكونة من الخيالة والمخافر الأمامية؛ ومهمتها المراقبة والاستطلاع والاحتفاظ مع التماس مع العدو، ولذلك كانت تكون فرقة صغيرة وخفيفة.

وأما المؤخرة فهي خمسة كراديس و تتألف من خمسة آلاف مقاتل بقيادة سعيد بن زيد؛ ومهمتها قيادة الظعن، وكان القاضي أبا الدرداء، ومهمة الأقباض التي أوكلت لابن مسعود هي تأمين الأمور الإدارية والإعاشة والتموين وجمع الغنائم، وخطيب الجيش أبو سفيان، والقارىء المقداد بن الأسود الذي يقرأ على الجيش سورة الأنفال، والقائد العام خالد بن الوليد في الوسط يحتف به كبار الصحابة[2]. والتحم الفريقان، واتبع الروم في القتال الترتيب التالي:

_ الرماة في المقدمة، وواجبهم أن يُنْشِبوا القتال ثم ينسحبوا إلى وراء الأجنحة.

_ وعلى الجناحين جعلوا الخيالة الذين واجبهم حماية الرماة حتى انسحابهم من الخلف.

_ والكراديس: الذين هم مشاة واجبهم الاقتحام.

وكان قائد المقدمة «جَرَجَةَ»، وقائد الجناحين «باهان» و«الدُّراقص»[3].

وقد كان خالد قد خطب بالمسلمين حين سار بهم إلى الروم وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن هذا يوم من أيام الله لاينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأَرِيدوا الله بعملكم، فإن هذا يومٌ له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية؛ على تساند[4] وانتشار؛ فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن مَنْ وراءكم لو يَعْلَمُ عِلْمَكُم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا

(١) الأقباض: جمع قَبَض؛ وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم. لسان العرب(قبض).
(٢) السابق: ٤٣٨ـ٤٤٠.
(٣) السابق: ٤٤٢.
(٤) يقال: خرج القوم متساندين : إذا خرجوا على رايات شتى، إذا خرج كل بني أب على راية ولم يجتمعوا على راية واحدة، ولم يكونوا تحت راية أمير واحد. لسان العرب(سند).

فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم، ومَحَبَّتُهُ»، فقالوا له: «هات فما الرأي؟» قال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون، لقد جمعكم. إن الدنيا فرقت بينكم، فالله اللهَ، قد أُفرد كلُّ رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أَنْ دَانَ لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا، فإن هؤلاء تهيؤوا، وهذا يومٌ له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاورِ الإمارة، فليكن بعضُنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمَّرَ كُلُّكم، ودعوني أَلِيَكُمُ اليومَ»[1].

ولو تأملنا في هذا الكلام فإننا سنجد فيه عذراً لخالد رضي الله عنه في كل شيء نسبه الناس إليه في شأن الإمرة مما سيأتي.

ونشب القتال وبرز خالد بين الصفوف، فتقدم إليه أحد قادة الروم «جَرَجَةَ» وخاطبه في حديث أسلم بعده «جَرَجَةَ»، وقاتل مع خالد من ارتفاع النهار إلى الغروب، ثم أصيب «جرجة»[2]، الذي لم يُصَلِّ إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما، وصلى الناس الأولى والعصر إيماء، وتضعضع الروم، ونهض خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورَجِلهم، ففر الفرسان إلى الصحراء، وبقي المشاة، فاقتحم المسلمون خندقهم، فهوى فيه المقترنون بالسلاسل والعمائم وغيرهم، وقتل «الفيقار» وأشراف الروم، وكان عدد من تهافت في الخندق يقرب من مئة وعشرين ألفاً؛ منهم ثمانون ألفاً من المُقَرَّنين، وأربعون ألفاً من المُطْلَقين سوى من قتل في المعركة من الفرسان والمشاة، ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص، فنادى بالرحيل عنها قريباً، وجعلها بينه وبين المسلمين، وأمر عليها أميراً كما على دمشق.

وكان خالد بن الوليد رحمه الله في الميدان إذ جاء الكتاب بنعي أبي بكر وخلافة عمر، فكتم الخبر أثناء الالتحام لئلا تتضعضع نفوس المسلمين، وقد كان الوضع لو سمح في هذا الكتيب أن نصف كيف خرج خالد من العراق وكيف قطع البادية حتى وصل الشام[3]، بيد أن الإشارة تكفي هنا، ومُبلغ نفس عُذْرَها مثل مُعْذِر.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٢) السابق: ٣/ ٣٩٨-٣٩٩.
(٣) السابق: ٣/ ٤١٥-٤١٧.

عزل عمر لخالد عن القيادة العامة

وغداة تولي عمر للخلافة رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة للهجرة عزل خالداً عن إمارة الأمراء وعن القيادة العامة للجيش، وكان هذا العزل لأسباب منها ما تقدم من رأي عمر في نهج خالد ومسلكه وحدته في الفتوح، ومنها ما نقمه منه على زواجه بزوج مالك بن نويرة وتسرعه في قتله، وبالجملة تدل الروايات على أن عمر يخالف خالداً في سياسته كما أن خالداً لا يرى أسلوب عمر مناسباً، والأساليب تختلف في الشخص الواحد وبين الأشخاص، وكل أسلوب إنما هو كيفية متغيرة لمعالجة الأفعال والأشياء، وهي بحسب نوعية العمل، وما يراه الشخص مناسباً من أسلوب ما قد يراه غيره ليس ملائماً ولا مناسباً، والقضية فيها اختلاف في البصر والرؤية ونجاح الأمر، بشرط ألا يخرج الفعل عن الأمور الإجمالية من الأوامر التي جاء بها الشرع؛ أي عموميات الأفعال التي خاطب بها الشرع العباد.

ولن نعكف على روايات لا يدرى ما وجهها[١]، وفيها ما فيها من الرواة الذين لا يعول عليهم، فليس من غرض هذا التأليف، بل الذي نبتغي أن نذكر الوقائع الصحيحة كما اشترطنا، ولو كانت في أدنى درجات القبول في هذا العلم، والذي يتضح لنا أن عمر عزل خالداً هذه المرة، وولى أبا عبيدة مكانه، ولم يشأ أبو عبيدة أن يروع خالداً، فكتم عنه ولم يخبره أنه صار الأمير مباشرة، فسمع خالد من الناس، ولما خاطب أبا عبيدة معاتباً قال له: «كرهت أن أُرَوِّعَكَ»[٢].

وعمل خالد تحت إمرة أبي عبيدة نحواً من أربع سنوات لم يعرف عنه فيها رضي الله عنهما أنه اختلف عليه ولو مرة واحدة، ولم يتوان أبو عبيدة الذي ربي هو الآخر في مدرسة النبوة عن أن يأخذ بمشورة خالد وعن ملازمته ومصاحبته، وتقديره العظيم لرأيه العسكري، وعمله في فتح دمشق و«قنسرين»، وحين طلب إليه أبو عبيدة أن ينفذ مهمة قتالية أجابه: «أنا لها إن شاء الله، وما كنت أنتظر إلا أن تأمرني»، فقال له أبو عبيدة: «استحييتُ منك ياأبا سليمان» ، فقال خالد:

«والله لو أمر علي طفل صغير لأطعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيماناً وأسبق

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٦٦ على سبيل المثال.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٧.

إسلاماً؟ سبقت بإسلامك مع السابقين، وأسرعت بإيمانك مع المسارعين، وسماك رسول الله بالأمين، فكيف ألحقك وأنال درجتك؟ والآن أشهدك أني قد جعلت نفسي حبساً في سبيل الله تعالى، ولا أخالفك أبداً، ولا وليت إمارة بعدها أبداً»[١].

وقد مر بنا فيما مضى كيف أن خالداً كان مليئاً بالإيمان والجسارة، وتشهد له أعماله قبل أقواله على براءة نفسه من الشوائب التي عالجها النبي ﷺ في حينها عند خالد والصحابة أجمعين، ولسنا نشك في أن قلبه نقي من كل أدران الدنيا ولو حبةَ خَرْدَلٍ. وقد كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر حين فتح الله عليه «قنسرين» فولى خالداً عليها؛ كتب يصف الفتح وبلاء خالد فقال عمر رضي الله عنه: «أَمَّرَ خالدٌ نفسه، رحم الله أبا بكر، هو كان أعلم بالرجال مني»[٢]؛ ويقصد عمر رضي الله عنه أن خالداً قد فرض نفسه على المسلمين بأفعاله وبلائه، فصار بينهم أميراً، وأن أبا بكر كان يعلم بقدرة خالد وبلائه في المشركين وضروب شجاعته، ومقدرته العبقرية الفذة.

عزل ثان لخالد

وقد جاء العزل الثاني لخالد في السنة السابعة عشرة للهجرة؛ فقد كان خالد لم يزل مع أبي عبيدة حتى توفي أبو عبيدة، واستُخلف عِياض بن غَنْم، فلم يزل خالد مع عياض حتى مات، فانعزل خالد إلى «حمص» ثمة، وحَبَّس[٣] خيلاً وسلاحاً، فلم يزل مرابطاً بحمص حتى نَزَلَ به المرض[٤]، ولكن تم عزل خالد عن «قنسرين» أثناء وجوده عليها في فترة أبي عبيدة؛ فبلغ عمر أن خالداً أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف؛ أي أعطاه إياها جائزة، وعمر لا تخفى عليه خافية في شأن عماله، فكتب إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويَعْقِلَهُ بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يُعْلمهم من أجاز الأشعث؟ أمن مال الله أم من ماله؟ فإن زعم من إصابة أصابها، فقد أَقَرَّ بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، وطلب إلى أبي عبيدة أن يعزله على كل حال، وأن يضم إليه عمل خالد في ولاية «قنسرين»، فأطاع أبو عبيدة.

---

(١) سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، علي محمد الصلابي، ط(١)، بيروت ـ دار المعرفة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م: ٣٤٦.
(٢) السابق: نفسه.
(٣) أي جعلها محبوسة في سبيل الله ولأعمال الجهاد.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/١٦٠٧.

وقدم خالد على عمر فشكاه خالد إلى المسلمين وقال له: «لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله -يا عمر- إنك في أمري غيرُ مُجْمِلٍ»، فقال عمر: «من أين هذا الثراء؟» قال: «من الأنفال والسُّهمان[١]، وما زاد على الستين ألفاً فلَكَ؛ تقوِّم عُروضَهُ»، فخرجت عليه عشرون ألفاً، فأدخلها بيتَ المال، ثم قال: «يا خالد، والله إنك لكريم علي، وإنك لحبيب إلي، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء»[٢] .

لقد كان عمر صارماً في شأن العمال رضي الله عنه، وهو يعلم أن البشر مهما سموا وارتقوا فإنما يصيبون ويخطؤون، وليس ثمة معصوم إلا النبي، ومن ثم فإن عمر يظل على ترقب وتوجس إزاء عماله، وإزاء أحكام الشرع لا يحيد عنها قِيْدَ شَعَرَةٍ؛ ومن محاسبته لخالد رضي الله عنه ما رواه ابن سيرين: «أن خالد بن الوليد دخل وعليه قميص حرير، فقال عمر: ما هذا؟ قال: وما بأسه؟ قد لبسه ابن عوف»، قال: «وأنت مثله؟ عزمت على من في البيت إلا أخذ كل واحد منهم قطعة، فمزقوه»[٣].

فخالد بلغه حديث ابن عوف وصاحبه حين سمح لهما الرسول ﷺ أن يلبسا الحرير لحكة كانت في جلدهما، وأخذ بالمدلول مطلقاً دون أن يرى أن السبب هو التداوي، ولكن عمر يرى أن السبب هو التداوي في دلالة ظاهر عبارته التي رواها ابن سيرين، والخلاف اجتهادي بالطبع؛ ويحضرني أن بعض الأئمة الزيدية قد رأى في مقام الحرب جواز لبس الحرير فيها، حملاً على الاختيال كما ورد في حديث أبي دجانة[٤]. الذي كان يمشي مشية اختيال؛ يبغضها الله ورسوله إلا في موطن الحرب كما ذكر النبي ﷺ ، فقاس الإمام الزيدي الحرير على المشية المحرمة، لجامع الحرمة بينهما إلا في موطن الحرب.

---

(١) السهمان: جمع سهم يعني من أسهم الغنائم التي استحقها.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦٠٧.
(٣) السابق نفسه.
(٤) ذكره محمد بن إبراهيم الوزير اليماني في كتابه «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم»، وليس الكتاب بين يدي الآن لكي أعين الصفحة والجزء.

أيام خالد الأخيرة

لما انعزل خالد إلى حمص كما ذكرنا وحبس الخيل والسلاح، وظل هناك مرابطاً نزل به المرض، وقد عاده أبو الدرداء، فذكر له خالد: أن خيله التي حبست بالثغر إنما كان يعلفها من ماله الخاص، وأنه تصدق بداره التي بالمدينة وأشهد على ذلك عمر، وقال له: «والله يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها»[١].

ولما حضرت خالداً الوفاةُ قال: «لقد طلبتُ القتلَ مظانَّهُ، فلم يُقَدَّرْ لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس، والسماءُ تُهِلُّني ننتظر الصبحَ حتى نغير على الكفار»، ثم قال: «إذا مِتُّ فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عُدةً في سبيل الله»، فلما توفي خرج عمر على جِنَازته[٢]، فذكر قوله: «ما على آل الوليد أن يَسْفَحنَ على خالد من دموعهن، مالم يكن نَقْعاً ولا لَقْلَقَةً»[٣].

وروي أنه لما احتُضِر رضي الله عنه بكى وقال: «لقيتُ كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شِبرٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو رميةٌ بسهم، وها أنا أموت على فراشي حَتْفَ أنفي كما يموت العِيْرُ، فلا نامت أعينُ الجبناء»[٤].

وروي عن إسحاق بن يحي بن طلحة عن عمه موسى قال: «خرجتُ مع أبي طلحة إلى مكة مع عمر، فبينا نحن نحط على رواحلنا إذ أتى الخبر بوفاة خالد، فصاح عمر: يا أبا محمد، يا طلحة، هَلَكَ أبو سليمان؛ هلك خالد بن الوليد، فقال طلحة:

لا أَعرفنَّك بعد الموت تَنْدُبني   وفي حياتي ما زوَّدتني زادا»[٥]

وفي هذا الشعر زيادة وجع على عمر إذ يعرض به طلحة، ونستطيع أن نلمس لوعة عمر على خالد رضي الله عنهم جميعاً، وقد ولي عمر وصيته، ولم يدع خالد رضي الله عنه إلا فرسه

---

(١) سير أعلام النبلاء: نفس المشار إليه السابق.

(٢) الجِنازة؛ بالكسر: سرير الميت.

(٣) السابق: نفسه. والنقع: إهالة التراب على الرأس. واللقلقة: الصراخ.

(٤) السابق: نفسه.

(٥) السابق: نفسه.

وسـلاحه وغلامه، وقد قال عمر في ذلك: «رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به»[١].

وكانت وفاة خالد في حمص سنة إحدى وعشرين، وكان قبل ذلك معتمراً ورجع كما ذكر ابن أبي الزِّنَاد[٢].

وله حديثان في الصحيحين، وفي مسند بقي بن مَخْلَد واحد وسبعون حديثاً كما أحصاها الذهبي[٣]، ولخالد بحمص مشهد يزار.

(١) السابق: ٢/ ١٦٠٨.
(٢) السابق: نفسه.
(٣) السابق: نفسه.

خاتمة

ويرحم الله خالداً فقد كان رجل دولة تخرج في فردوس النبوة، فجنى ما جَنَى، وأنتج ما أنتج، وله بصمة وموطىء قدم في تراب العراق، وفي كثير من بلاد الشام، وتشهد له حتى باديتها والقفار التي قطعها، والسيوف التي انكسرت وكان منها في موقعة واحدة فقط تسعة أسياف كما ذكر هو نفسه عن معركة «مؤتة»[1].

لقد كان رضي الله عنه ذا كرامة ويقين عند الله، حتى إنه في الحيرة أتي بسُمٍّ فسأل عنه فقالوا له، فشربه أمام المَرازبة، ولم يحصل له شيء[2]، وقيل: إنه أتي برجل معه زِق خمر فقال: «اللهم اجعله عسلاً»، فصار عسلاً[3].

لقد كانت أخلاقه عالية في كل شيء، وكان نظره في العقيدة على أوضح ما يكون حتى إنه طلق امرأة له، فقيل له فيها فقال: «لم يُصِبها عندي مصيبةٌ ولا بلاء ولا مَرَضٌ، فرابني ذلك منها»[4].

حقاً هذا هو فهم دقيق للإيمان، إذ إن العبد الذي لا يصيبه البلاء لعله في خطر أمام ربه؛ فالبلاء قرينة على محبة الله لعبده كما دلت النصوص.

وإن محبة خالد للنبي ﷺ قريباً منه على الدوام، وقد كان لا يخلع هذه القلنسوة، ويحرص عليها أشد الحرص، حتى إنها سقطت مرة فدافع عنها أشد دفاع حتى استعادها في المعركة، وليس ذلك إلا لحرصه على ما يتعلق بالنبي ﷺ[5]، وليس كما يدعي بعض من سمعت ممن ينتصب للعلم من أن النصر كان بقلنسوة خالد، ولذلك حرص على استعادتها حين سقطت

---

(١) السابق: ٢/١٦٠٦.
(٢) السابق: ٢/١٩٠٦.
(٣) السابق: نفسه.
(٤) السابق: نفسه.
(٥) السابق: نفسه. و١٦٠٥.

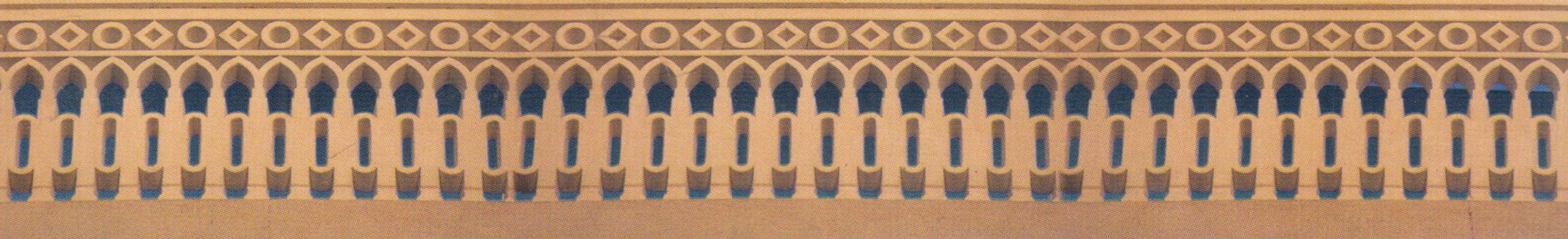
على الأرض.

وأما جسد خالد فيشهد له على ما خاضه من معارك في سبيل الله؛ فقد ذكر بعض من غسله بحمص ونظر إلى ما تحت ثيابه أنه ما فيه مُصِحٌّ في جسده؛ فكله مابين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم[1].

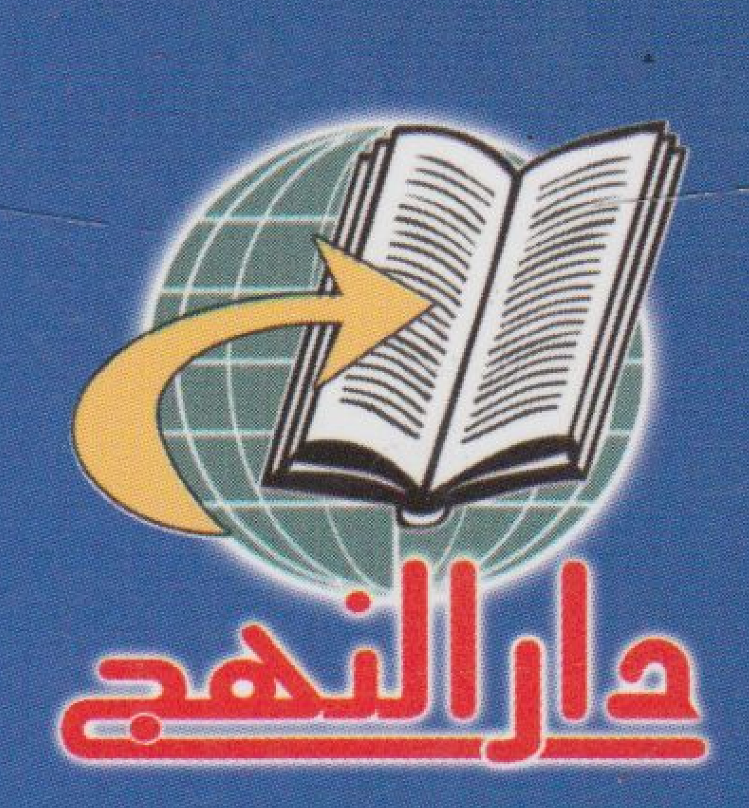
لقد كانت روائح الجنة تَعْبَقُ بأبي سليمان، وإن سيرته لتشعرنا بانفهاق أبواب الجنة لنا تدعونا بما أمرنا الله، والعاقبة خير للمؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

(١) السابق: ٢/ ١٦٠٥.

المحتوى







سوريا ـ حلب ـ الجميلية ـ جانب صالة الأسد
هاتف: 21276760 فاكس: 21276766
جوال: 093332675